جاسم حسين المشرَّف

لِكي نَسْمُوا

أرواحنا بين عوامل السقوط وأسباب النهوض




مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

لَكي نَسْمُو

البناء الروحي بين عوامل السقوط وأسباب النهوض

جاسم حسين المشرف



البناء الروحي بين عوامل السقوط وأسباب النهوض

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المشرف، جاسم حسين عبدالله

لكي نسمو: البناء الروحي بين مراحل السقوط وأسباب النهوض/

جاسم حسين عبدالله المشرف - الأحساء ١٤٢٨هـ

١٧٦ ص؛ ٢١ سم

ردمك: ١ - ٣٠٥ - ٥٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١- الأخلاق الإسلامية ٢- القيم الدينية أ- العنوان

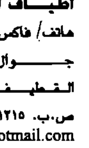
ديوي ٢١٢,٣ ٥١٧٦/ ١٤٢٨

رقم الإيداع: ٥١٧٦/ ١٤٢٨

ردمك: ١ - ٣٠٥ - ٥٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



أطياف للنشر والتوزيع

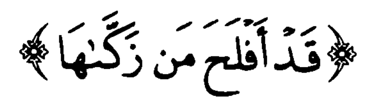
هاتف/ فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦ +

جوال: ٠٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦ +

القطيف - شارع القدس

ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١

E-mail:atyaf-pd@hotmail.com



الأعلى: ١٤

إهـــــداء..

إليكَ يا سبطَ رسول الله وريحانته

إليكَ يا مَن طَهَّره اللهُ وفَرَضَ مَوَدَتَه

إليك أيها الإمام المجتبى

أبا محمد الحسن بن علي

أرفع جُهدَ المُقِلّ

فتَلَطفْ سيدي بالقبول

استهلال



الحمد لله ربِ العالمين، وصلى الله خير خلقه محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

متى نرى الغاية من وجودنا كالشمس الساطعة في رائعة النهار؟وكيف نُقَلِصُ المسافة التي تفصلنا عن إنسانيتنا؟

ومتى تتصالح قوى النفس منسجمة؛فلا تطغى قوة على أخرى، وتعود للعقل إمرته على كامل أبعاد حياتنا؟

وكيف نتخلص من سطوة الحيرة والقلق والاضطراب؟

لم تستطع القوانين الوضعية، والرفاهية المادية،

والوسائل التقنية الحديثة مِن تحقيق السعادة والطمأنينة التي طالما طمح إليها الإنسان وعانى في سبيلها.

كان وما زال الإنسان الغربي -الذي يحاول فرض نموذجه الحضاري على البشرية- يعاني من الأمراض النفسية المتأصلة من قلق، وخوف، واضطراب، والتي تفتك به إلى درجة الانتحار في أكثر دول الغرب مدنية ورفاهية مادية!.

وتمتدُّ سطوة هذه الأمراض لتشمل الكثير مِن المسلمين الذين انبهروا بالحضارة الغربية، ليأخذوا منها رؤيتهم ومنهجهم في الحياة.

إذا أدركنا قيمتنا وموقعنا في هذا الوجود، وتفهمنا أننا سائرون جميعاً إلى الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[1] وإذا تعرفنا على المخاطر التي تعترضنا، والمعوقات التي تحول بيننا وبين رؤية الأشياء على حقيقتها، وابتعدنا عن كل ما لا يليق بجوهرنا، وتسامينا بأرواحنا إلى سماوات الفضيلة والكمال، -كلٌّ بحسب قابليته وجهده- عندها سنحسُّ أنَّ للحياة معنى، وسنستشعر الحياة الطيبة التي وعد الله عباده المتقين في الدنيا قبل الآخرة.

(١) الانشقاق: ٦.

ولستُ هنا بصدد سرد الأوراد، والمستحبات الواردة في هذا المجال، وإنْ كان البحث لا يعدم بعضها.

وإنما أحاول التنظير والتأسيس لمنهجية قائمة على أساس متين من الإخلاص والصدق مع الله تعالى، أما المستحبات والأوراد فتطلب في مضانها.

وهذا الكتاب يمثل جانباً من سلسلة دروس قدَّمتها في بناء الذات، على طلبة التدريس الثقافي السنوي، يمثل هذا الواقع ويحاور تلك التساؤلات، أقدمه بين يديك، كمرآة لرؤية الروح في بعض تجلياتها، وخطوة في سبيل سموها، في زمنٍ أضحت فيه الروح أسيرة الجسد ومشتهياته.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾[1] -عزيزي القارئ- لذا كتبته بلغة سلسة، وبيان واضح، متجاوزاً الطنطنة اللفظية، والطرح المثالي والإنشائي، البعيد عن الواقع، مراعياً فيه ـ ما أمكن- الشمولية، والاختصار، واعتمدت الإحالات إلى بعض المؤلفات تلافياً للتكرار.

وكما أنه مدخل لسلسلة بحوث كتبتها في بناء الشخصية الإسلامية الرسالية، ستجد الإشارة لبعضها في ثنايا هذا البحث.

---

(١) القصص: ٢٧.

وهو -كغيره- مستقلاً بذاته، ولا يغني عن غيره مما كُتِبَ في هذا المجال، ولكل زهرة أريجها.

جاسم حسين المشرف

٧ صفر ١٤٢٨هـ

الفصل الأول

الشخصية.. غايةٌ وأبعاد

لكي نسمو بأرواحنا

لماذا وِجِدنا؟

خلق الله الإنسان وسخر الوجود لخدمته، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

---

(١) إبراهيم: ٣٢-٣٤.

﴿يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾[1]

وليكون خليفته في الأرض فيعمرها ويستثمرها ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2] وليتكامل من خلال استنفار كل طاقاته وإمكاناته التي وهبه الله إياها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3].

ودعاه إلى العلم والتفكر لاكتشاف سُنن الوجود، والقوانين التي تحكم الكون، والنفس؛ لِتسخيرها فيما يحقق الغاية التي وجِدَ لأجلها.

وهذه الخلافة لا تتحقق بكل تجلياتها إلا من خلال تكامله في جميع جوانب شخصيته، ففرض عليه العبادة التي ترتقي بإنسانيته نحو مدرج السمو والكمال ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4].

وهذه العبادة إذا ما أُديت بشروطها وآدابها سترتقي به إلى درجة التقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

(١) الجاثية: ١٢-١٣.
(٢) البقرة: ٣٠.
(٣) يونس: ١٤.
(٤) الذاريات: ٥٦ .

وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1].

والتقوى بدورها توصله إلى المعرفة والغاية النهائية من وجوده وهي الفلاح والسعادة الأبدية ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[2].

فهو -أي الإنسان- أبعد ما يكون عن العبث تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأنى تصور ذلك وما من ذرة في الوجود إلا ولها غاية، وتدخل في علاقة مع بقية الموجودات بارتباط دقيق ومحكم، يدلُّ على قدرة الخالق وإحاطته وقدرته، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾[3].

* * *

هذا الإنسان المكوَّنُ من قبضة من تراب الأرض ونفخة من روح الله تعالى تتجاذبه هاتان القوتان:

أ) قوة التراب التي تشده إلى الأرض، ليستغرق في إشباع مطالب الجسد ومشتهيات النفس، التي قد تُهيمِنُ عليه ليمارس الظلم لأخيه الإنسان في سبيل أنانيته،

(١) البقرة: ٢١.
(٢) المائدة: ١٠٠.
(٣) المؤمنون: ١١٥.

ويضحى أسير الحسد والظلم، والغفلة، والجزع، والعديد من المساوئ الأخلاقية التي تحول بينه وبين كماله، وتبعده عن حقيقة وجوده.

ب) وقوة الروح التي تدفعه نحو الرفعة والسمو والتعالي عن كلِّ ما لا يليق بجوهره؛لأنه المخلوق التي اصطفاه الله واجتباه لخلافته، وأسجد الملائكة خضوعاً له وتكريماً.

وليأخذ من مشتهيات الجسد ما يقوِّم به حياته، ويساعده على تحقيق غاياته الكبرى؛فيصبح له من المنزلة والشرف عند الله ما يفوق الملائكة.

هذا جانب من رحلة الصراع في طريق الكمال، فما الذي يحول بين الإنسان والغاية العظمى التي جاء إلى الوجود من أجلها؟

وكيف يتجاوز تلك التحديات التي تسعى لأن تقطع عليه الطريق؟

وما نتيجة نجاحه وفشله في هذه المعاناة؟

هذا ما سنحاول استعرضه والإجابة عليه فيما يأتي.

* * *

اعتنى الإسلام ببناء الشخصية الفردية والشخصية الاجتماعية الاعتبارية في كل أبعادها عناية شاملة متكاملة، ومتوازنة؛فلا تناقض فيها ولا تعارض، لتنعم بالتوافق والتصالح الذاتي، والمنعكس على استقامة السلوك واعتدال المواقف؛لأنه أراد لها أن تتمحور في كل فعالياتها اللفظية والحركية حول مبدأ التوحيد، والذي يمثل وحدة الرؤية والغاية، وانسجام القيم والمبادئ.

ما هي الشخصية؟

ويختلف الناس في حركتهم التكاملية تبعاً لرؤيتهم للحياة وفلسفة الوجود، وتتشكل هذه الرؤية تبعاً لطبيعة القابلية الذاتية، والمكوِّن الثقافي، هذا المكوِّن الذي تسهم التربية والتعليم، والتجربة الحياتية بكل أبعادها في تشكيله وتبلوره. وهذا يقودنا لمعنى الشخصية وجوانبها.

ومصطلح (الشخصية)بلفظه لا وجود له في المعاجم اللغوية القديمة، وفي النصوص الإسلامية عامة، إلا أننا عند تتبع المعنى الفلسفي والنفسي لهذا المصطلح نجده يلتقي كثيراً في معناه ودلالته مع مفردة (الإنسان) وَ(النفس) الوارد ذكرهما في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة[1].

---

(١) للتوسع والاستزادة انظر: الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي نزار العاني دار الفرقان ط ١ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ص٣٦-٤١.

والشخص عند الفلاسفة هو: «الذات الواعية لكيانها المستقلة في إرادتها»[1].

والشخصية: هي مجموعة الخصائص والصفات النفسية والفكرية التي تُمَيِّزُ المرء عن غيره، وما ينتج عنها من علاقات اجتماعية، وأفعال سلوكية. تتنامى من خلال بنيته الوراثية، والتربوية، والعوامل التعليمية والثقافية، وتجاربه الحياتية.

ويُعَرِّفُ محمد أمين زين الدين الشخصية بـ: مجموعة من السمات والخصائص، تجتمع فتكوِّنُ للفَرد هوية خاصة تميِّزُهُ عَن الآخرين، وبمقتضى علو تلك الصفات والخصائص وهبوطها، واستقامتها وانحرافها، يتعين مركز ذلك الفرد في مجتمعه علواً وهبوطاً، واستقامة وانحرافاً. وهي سرُّ نجاحه أو إخفاقه في الحياة، وهي أساس قبوله أو رفضه لدى الآخرين[2].

***

لذا لا يلتقي الذوبان الكامل في أي تكتل حزبي أو قبلي مع مفهوم الشخصية في بعدها الذاتي؛ بحيث تُسلَب

---

(١) المصدر السابق ص٣٧.

(٢) انظر: إلى الطليعة المؤمنة ص ٢٤٧.

مع هذا الذوبان والانسياق إرادة القرار، والتعقل الذاتي، والرؤية الشخصية، والحرية الذاتية، هذه الصفات الجوهرية التي بها كُرِّمَ الإنسانُ ومُيِّزَ على غيره.

وقد كان هذا الوضع مهيمناً على التجمعات الجاهلية، يقول شاعرهم:

وهل أنا إلا مِن غُزَيَّةَ إنْ غَوَتْ
غَوَيتُ، وإن تَرشُدْ غُزَّيةُ أرشُـدُ

غُزيةُ قبيلة الشاعر وهو يفتخر بانتسابه إليها، ويقرر أن لا رأي له ولا موقف شخصي، فكيفما كانت القبيلة كان من غواية ورشد!.

أنكر الإسلام هذا الذوبان في الآخر، واعتبر أن لكل إنسان شخصيته المستقلة عن غيره، التي تجعله حُراً فيما يحمل من عقيدة وموقف، بعيداً عن مؤثرات الجماعة أو الآباء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

* * *

(١) المائدة: ١٠٤.

جوانب الشخصية

مما تقدم من تعريف يمكن تقسيم شخصية الإنسان إلى عدة جوانب، ومنها:

١. الجانب الفكري

يقوم الجانب الفكري على أساس القيم والمفاهيم العقلية والإنسانية عن الخالق جلَّ وعلا، والكون والحياة، وهدفية الوجود.

ويتكامل بالتعلم، والمدارسة، والتفكر، والتدبر، والثقافة القائمة على تركيز الثوابت وتحديد الأولويات المعرفية، ومواطن الحاجة المِلِحَّة وإشباعها.

٢. الجانب الروحي

ويزدهر هذا البعد في الشخصية الإنسانية بالعبادة بمعناها الواسع، وتشمل الصلاة، والصوم، والتلاوة، والذكر، والدعاء، والفضائل الأخلاقية... واستشعار نيِّة القربى في كافة معاملاتنا، وممارساتنا الإنسانية.

٣. الجانب العاطفي

يتمثل الجانب العاطفي في الانفعالات، والرغبات،

والميول التي قد يترَكَّز بعضها أو جُلُّها في موضوع محدد، حسب استعداد الشخص وقابلياته النفسية، وأقواها وأشدها تأثيراً عاطفة الحب.

وترتكز التربية العاطفية على تنظيم العواطف والغرائز وتوازنها؛ فلا تُكبت ولا تُطلق، وإنما تُخضع لحكم العقل السليم والشرع القويم[1].

٤. الجانب الاجتماعي

ويتمثل هذا الجانب في العلاقات والروابط الاجتماعية بتقسيماتها المتعددة، وسبل تنظيمها، وفق الحقوق والواجبات.وهو مجال واسع النطاق، متعدد الاتجاهات، ومن أكثر جوانب الشخصية تأثراً والتصاقاً بالجانب العاطفي[2].

ودرجة الاهتمام والتركيز على جانب ما أو أكثر من جوانب الشخصية يسهم -إلى جانب استعداد الفرد وقابليته- في تحديد مسار الشخصية ونوعها من (عاطفية

---

(١) تناولنا هذا الموضوع في بحث مستقل بعنوان: العاطفة كالماء (ط).

(٢) تناولنا العديد من العناوين والقضايا الاجتماعية والعاطفية في كتابنا: (الصداقة من واقع التجربة) دار الكاتب العربي بيروت/ لبنان ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

انفعالية، أو فكرية تحليلية، أو اجتماعية، أو قيادية وغيرها).

كما أنَّ هناك جوانب أُخرى لها أهميتها ودورها المحوري والمؤثر على شخصية الإنسان وحياته كالجانب الصحي، والاقتصادي.

وتندرج تحت العناوين السالفة الذكر عدة تفريعات وتفاصيل بحسب مجال الدراسة، كما أنَّ هناك تقسيمات أخرى للشخصية الإنسانية لسنا بصددها في هذه المدارسة.

* * *

والشخصية الإسلامية: هي التي جعلت لها الإسلام منطلقاً في كلِّ فعالياتها الفكرية والعاطفية والسلوكية، وتحتكم إليه، لتجعل منه نظام حياة.

وكلما تعمقت المفاهيم والقيم الإسلامية في فكر المسلم ووجدانه انعكسَ ذلك على سلوكه ومواقفه، وهذا رهين مستوى الوعي الذي يحمله، كما سيأتي.

وقد أراد الإسلام لهذا الشخصية أن تشبع حاجاتها الروحية والفكرية والجسدية بصورة متوازنة؛ فلا يطغى جانب على آخر لتبقى حياة الإنسان مستقرة وشخصيته متوازنة.

* * *

الأفكار والمشاعر والتأثير المتبادل

وتتداخل هذه الجوانب متبادلة التأثير سلباً وإيجاباً في بعضها. وقد يكون بعضها أكثر حضوراً من غيره لدى إنسان ما.

و«الأفكار التي يعتقدها الإنسان ويؤمن بها تصيغ مشاعره وتحركها باتجاهات معينة تتناسق مع طبيعة الفكرة. والمشاعر بدورها تدفع الإنسان نحو القيام بممارسات وتصرفات تصدر من وحي المشاعر وتستجيب لها، ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد؛لأنَّ الممارسات ترتد بشكل عكسي لتعيد إنتاج مشاعر الإنسان وأفكاره»[1].

وتنعكس الحالات النفسية والصفات الأخلاقية على ملامح صاحبها وإيماءاته وسلوكه فـ«**سيرةُ المرءِ تُنبِئُ عن سريرته، وقولُ المرءِ ينبئُ عمَّا في قلبه**» كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، ويقول في مورد آخر: «**ما أضمر أحدٌ شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه**»[2].وهذا يعكس العلاقة الشديدة الصلة بين الروح والجسد.

---

(١) رؤى فكرية كامل الهاشمي الغدير للطباعة والنشر والتوزيع ط ١ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م ص٣٢.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة: ٢٥.

وَ«كما أنَّ كل علم واعتقاد قلبي يترشح منه نوع من العمل يناسب ذلك العلم، كذلك العكس، فإنَّ كلَّ نوع من العمل صالحاً كان أو طالحاً فإنه يركِّزُ ويُحَصِّل في النفس نوعاً خاصاً من العلم والاعتقاد يناسبه وينسجم معه، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾[2].هذا في العمل الصالح، أما في العمل الطالح فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[3]»[4].

والفكر المؤسس على ثقافة واعية أصيلة يدعو إلى إحياء الروح، وإصلاح القلب، وتعميق الأواصر الاجتماعية، وتبادل التجارب مع الآخرين، وتأمين الحاجات والقوى المادية والاقتصادية المساندة والمؤثرة على غيرها من جوانب الشخصية سلباً وإيجاباً حسب درجة وعي وإيمان صاحبها.

(١) الحجر: ٩٩.
(٢) فاطر: ١٠.
(٣) التوبة: ٧٧.
(٤) التربية الروحية بحوث في جهاد النفس السيد كمال الحيدري دار الصادقين إيران–قم ط ١ ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م ص ٩٥.

والشخصية السوية التي يُراد لها أن تحقق مهمتها في الحياة -والمتمثلة في خلافة الله في أرضه- هي التي تتكامل جوانبها بشمولية متوازنة؛ لتعطي كل جانب حقه من التركيز والاهتمام البنائي والمنسجم مع متطلبات المرحلة العمرية، والظروف الاجتماعية والسياسية. لا تلك الشخصية التي يقوى فيها جانب على حساب آخر.

* * *

الفصل الثاني

الجانب الروحي..
مفهوم وشروط

الجانب الأكثر إلحاحاً

في زمن الإيقاع السريع، واللهاث المحموم وراء الكماليات المادية على حساب التركيبة الفكرية والثقافية، ما أحوجنا أن ننمي الفكر بالمعرفة والتجربة الأصيلة، والتفتح العلمي المتواصل مع معطيات الحضارة؛ لكي تكون الشخصية المتحركة في الساحة بمستوى التحدي والمسؤولية والقدرة على التأثير والتغيير.

ومع التيارات الإغرائية الموغلة في البعد عن معنويات الروح والسمات الإنسانية، والتي حوّلت الساحة إلى أرض متعطشة لإشباع حاجات الجسد، وجعلت النفوس مرضى الداء المستفحل تحت غلِّ الشهوات ومصارعها[1]، ما

(١) يقول أبو الفتح البُستي:

يا خادمَ الجسمِ كم تسعى لخدمتهِ
أَتطلبُ الربحَ فيما فيـهِ خسرانُ
أقبلْ على النفسِ واستكملْ فضائلها
فأَنتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسـانُ

أحوجنا للرجوع لتلك المنابع الصافية؛ لنوازن هذه الشخصية ونعتقها من أغلالها ونعيد تأهيلها لأداء وظيفتها، فـ«**مَن أصلحَ نفسه ملكها، ومَن أهملَ نفسهُ أهلكها**»[1].

من هنا يتبين أنَّ الجانب الأكثر إلحاحاً لأن نقف عنده متأملين ولآفاقه محلقين - في زمن هيمنة الحسِّ المادي- هو الجانب الروحي الذي يمثل المعطى الأكثر تأثيراً على بقية الجوانب الأخرى لأن ﴿**ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[2] وإذا ما ازدهرت علاقة الإنسان بربه استقامت حياته، وتوازنت شخصيته، وازدهرت علاقاته الأخرى بكل مَن حوله؛ لأنه يمثل العلاقة المباشرة بالمثل الأعلى[3].

***

الجانب الروحي

ماذا نقصد بالجانب الروحي؟ وممَ يتشكل؟

هو البعد المعنوي والأخلاقي في شخصية الإنسان،

(١) ميزان الحكمة ج١٠ ص١٤٦.
(٢) الرعد: ١١.
(٣) للوقوف على تأثير العلاقة بالمثل الأعلى على بقية العلاقات الأخرى في مسيرة الإنسان راجع كتاب: السنن التاريخية في القرآن الكريم للشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه.

والذي يؤثر في تفاعلاته العاطفية وردوده الانفعالية إزاء ما يواجه من مثيرات وأحداث.

ويتشكل هذا الجانب من العديد من الصفات كَـ:

الإيمان ويقابله الكفر

الولاية / البراءة

الحب / البغض

الخوف / الرجاء

الإخلاص / الرياء

الصبر / الجزع

الزهد / الطمع

وغيرها من الصفات الأخلاقية والروحية.

* * *

ما هو الإعداد الروحي؟

يتمثل الإعداد الروحي في الحفاظ على فطرة الإنسان لتبقى نقية صافية، وتفعيلها لأن ترى الأشياء على حقيقتها. كما يتمثل في إزالة العوائق المانعة له -الإنسان- من التكامل، واستثمار الوسائل المساعدة لتأهيله للسير في طريق الكمال،

وبعبارة أُخرى التربية الروحية، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنٰهَا﴾[١].

«إنَّ تربية الروح وتكاملها يجب أن يصبح هدفنا الأهم في الحياة، وإنَّ من تكليفنا أن نفتح نوافذ قلوبنا وعقولنا لتقبل الخير والصدق والحب والرحمة، فإنَّ هذه الأمور تمنحنا الوضوح والجلاء، وترضي عنا الله سبحانه وتعالى»[٢].

* * *

شروط التربية الروحية[٣]

١- الشرط التكويني

ويتمثل في وجود قوانين تحكم العلاقة بين جوانب الشخصية الإنسانية، بين الجانب المعنوي الروحي، والجانب العملي السلوكي، بين الصلة النفسية بالله تعالى والأعمال

(١) الشمس: ٩-١٠.
(٢) رسالة الأخلاق السيد مجتبى الموسوي اللاري الدار الإسلامية ط ١ ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م ص ٣٥.
(٣) انظر: نظرات في الإعداد الروحي، الشهيد حسين معن، مؤسسة العارف للمطبوعات بيروت - لبنان ط ٢ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ص ٢٥٠ (بتصرف وإضافة).

التي يؤديها الإنسان.

ونجد هذا الشرط متجلياً في العديد من الآيات القرآنية ومنها:

أ) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] فتغيرُّ الواقع الشخصي، والخارجي الاجتماعي المحسوس بكل أبعاده مقرون بتغيرِّ الواقع الذاتي من حيث الدافع والمنطلق، والمثل الذي يحكم علاقة الإنسان بمن حوله.

ب) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾[2] فثمة صلة بارزة بين طمأنينة القلب وذكر الله تعالى من جهة، وبين ضيق الصدر والغفلة عن ذكره تعالى من جهة إخرى.

ج) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[3].

د) وفي سورة العصر، والكثير من السور القرآنية

(١) الرعد: ١١.
(٢) الرعد: ٢٨.
(٣) الأنفال: ٢.

تبرز العلاقة بين الإيمان والعمل، الإيمان الداعي للعمل، والعمل المؤكد والمرسخ للإيمان، وكون الإيمان دافع ومحرك للإنسان نحو العمل الصالح، فالعلاقة تبادلية التأثير.

لقد تكفل الله تعالى منذ التكوين بحكمته لإيجاد تلك القوانين والسنن التي تنظم حركة الوجود بما فيه الإنسان الذي عليه السعي لمعرفة ما يتاح له من هذه السنن والقوانين.

٢- الشرط التشريعي

أن يكون هناك مشرِّعٌ عالم قادر محيط يوجد قوانين ومناهج ودستور ينظم علاقات الإنسان بنفسه ومن حوله، ويبين الأعمال ونتائجها.

وقد تكفل الله تعالى رحمةً منه ولطفاً بإرسال الرسل بتلك النظم والقوانين الموصلة للكمال والسعادة.

وكما هو واضح أن هذين الشرطين خارجين عن إرادة الإنسان، فهما من شأن الله عزَّ وجلَّ، أما ما هو من شأن البشر فهو الشرط الثالث.

٣- المبادرة الفردية (الذاتية)

وهي تلك الإرادة الإنسانية الدافعة للعمل بالدستور

واستخدام الوسائل المؤدية إلى الغاية المرجوة، والمانعة من الوقوع في الخطأ والزلل.

وتتوهج المبادرة الذاتية لدى كبار النفوس، الذين جعلوا من هذا الجسد مطية لأرواحهم التائقة للكمال.

وإذا كانت النفوسُ كباراً
تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ[1]

***

لكي تعطي التربية الروحية أثرها

ولكي تعطي التربية الروحية أثرها لا بُدَّ من الآتي:

١- الإحساس بالنقص

ولا يسلك طريق السمو والكمال إلا مَن أحسَّ بنقصه، وحقارة موقعه في مدار هذا الوجود، «**وما أنا يا سيدي وما خطري**»[2] وفداحة بقائه على المعصية، وخطورة بعده عمن بيده الخلق والأمر.

ولا يسعى للتغيير إلا مَن عاش القلق المثمر، الذي

(١) ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت - لبنان، طبعة جديدة ٢٠٠٠م، ص١٧٠.

(٢) دعاء أبي حمزة الثمالي.

يُحَرِكُ صاحبه للثورة على واقعة، والسعي إلى معالي الأمور، بعد معرفة ما هو فيه من واقع، وما يجب أن يكون عليه.

أما صاحب الجهل المركب الذي يجهل أنه ناقص وأن ما هو عليه لا ينسجم مع الوظيفة التي أُنيطت به، والكرامة التي منحه الله إياها، وما يجب أن يكون عليه الإنسان السوي الصالح.

والمعجب بنفسه التي يتعامل مع الواقع بأنه الأفضل الذي لا ينازع، والأكمل الذي لا نقص فيه، والمبرأ من كل عيب.

فمثل هذا وذاك وأمثالهما لا تنفع معهم النصائح والإرشادات ما لم يتم العمل على إصلاح واقعهم الفكري ورؤيتهم للحياة، وإحداث حالة من الشعور بالشك المقلق في مسلماتهم الفكرية الخاطئة، ذلك الشك الذي يزيح عن بصيرتهم حُجب النفس والهوى؛ ليروا أنهم في وهم وضياع، عندها يصاغ البرامج الذي من خلاله توضع أرجلهم على الطريق.

فإذا تغيرت قناعة الإنسان تغيَّرت رغباته وآماله، وتبدّل سلوكه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[1].

(١) الرعد: ١١.

٢- المتابعة المعرفية

المتابعة المعرفية والثقافية المستديمة فيما تحتاجه الشخصية من علم، بما يتناسب مع الحراك الثقافي والاجتماعي والسياسي، وهي -أي الثقافة- بمثابة الدم الذي يغذي الجسم بما يحتاجه من غذاء.

ولا تعطي المعرفة أثرها إلا بعد استيعابها، ومعايشتها؛ لتحول إلى جزء من المكوِّن الفكري لصاحبها، والتأمل في أفضل السبل لتفعيلها واستثمارها في حياتنا الخاصة والعامة.

والمعرفة الحقيقية هي ما ترسخت في القلب، وسكنت إليها النفس، فهي ثابتة، لا تهزها عواصف الشك، الإغراء.

٣ - التوازن والتجانس

التوازن والتجانس بين جوانب الشخصية؛فلا يطغى فيها جانب على آخر؛لأنَّ ذلك من أبرز دواعي الانفراط الذي يسهم في تشويه الصورة الملكوتية للشخصية، فتصبح متضخمة من جانب على حساب بقية الجوانب الأخرى. وهذا خلاف الشمولية والتكامل اللتين من أهم سمات التربية الإسلامية.

٤- المثل الأعلى

أن تدور هذه القيم التربوية والثقافية في فلك مثل أعلى ثابت تحتكم إليه، فيما أشرنا إليه من شرط تشريعي. قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

والأسوة والقدوة المتمثلة في الإنسان الكامل ومن سار على نهجه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[3].

وكلُّ جوانب وأبعاد شخصية رسول الله ﷺ مجالاً للتأسي والاقتداء، في نظرته للوجود..

في عبادته وانقطاعه إلى ربه..

في خلقه ولطفه..

في صبره وصموده.

ولا يتصف بالتأسي بالرسول وأهل بيته صلوات الله

---

(١) النحل: ٦٠.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) الممتحنة: ٤.

عليهم مَن تسمى بالإيمان، بل مَن تلبس حقيقة الإيمان، والذي يتجلى في شروط ثلاثة أشارت إليها الآية الشريفة:

١- الإخلاص لله تعالى ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾[1]، فلا يريد بعمله غير وجه الله جلَّ وعلا، وكلُّ مَن تعرض لغيره تعالى من طلب جاه أو متاعٍ إنما يسير في طريق الوهم والسراب الذي يحسبه الضمآن ماءً.

نعم: «**خابَ الوافدونَ على غَيرِكَ، وخَسِرَ المُتَعَرِضُونَ إلا لك**»[2].

٢- استحضار الآخرة ﴿وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[3] إنه لا يرجو من عمله الأجر والعوض من أحد، كائناً ما كان، صغيراً أو كبيراً؛ لأن حسابه في كتاب لا يضل ولا ينسى.

٣- الذكر الدائم لله تعالى ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[4] وسنعرض لذلك لاحقاً.

كيف يمكن الاقتداء بأكمل الناس وأقربهم إلى الله تعالى ما لم ندرس تاريخهم، ونتعرف على تفاصيل حياتهم

(١) الأحزاب: ٢١.
(٢) من الأدعية اليومية لشهر رجب.
(٣) الأحزاب: ٢١.
(٤) الأحزاب: ٢١.

ومواقفهم، ونتأمل في أقوالهم وتراثهم؟!

* * *

يرتكز السمو الروحي على تقليص المسافة بين العبد وخالقه، والاقتراب من الله جلَّ ذكره؛بمعرفته وعبادته.

والله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، ولا يكون البُعدُ إلا من العبد ذاته، عندما يسلك غير طريق الهدى، ويُضِلُّ نفسه.

وهناك مَن يرى أنَّ السمو الروحي يرتكز على الاتصال بالمغيبات، والتعرف على خوارق العادات، والتي قد يكون بعضها نتيجة طبيعية لطهارة القلب وصفاء النفس.

روي عن ابن عباس قوله: جاء إعرابي إلى النبي ﷺ فقال: علِّمني مِن غرائب العلم، فقال ﷺ: **ما صنعتَ في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه؟!**

قال الإعرابي: وما رأس العلم يا رسول الله؟

قال ﷺ: **معرفة الله حقَّ معرفته.**

قال الإعرابي: ما معرفة الله حقَّ معرفته؟

قال ﷺ: **إن تعرفه بلا مثل، ولا نِدٍّ، وأنه واحدٌ أحدٌ، ظاهرٌ باطن، أولٌ آخر، لا كفوٌ له ولا نظير له، فذلك حقَّ معرفته**[1].

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**عَجِبتُ لمن ينشد ضالته وقد أضلَّ نفسه فلا يطلبها**»[2].

* * *

ويختلف الناس في مبادراتهم تبعاً لاختلافهم في درجة وعيهم وإيمانهم، وتجاوزهم للمعوقات التي قد تعترضهم. فما هي هذه المعوقات؟

---

(١) بحار الأنوار، ج٣، ص٢٦٩.
(٢) غرر الحكم: ح ٥١٣٢ ص ١٩٢.

الفصل الثالث

معوقات السمو الروحي

معوقات السمو الروحي

«اللهُمَّ عَظُمَ بلائي
وأفرطَ بي سُوءُ حالي
وقصُرتْ بي أعمالي
وقعدَتْ بي أغلالي
وحبسني عنْ نفعي بُعْدُ آمالي
وخدعتني الدُّنيا بغرورها
ونفسي بجنايتها»[1].

الإعاقة الروحية أشدُّ ألماً، وأصعبُ عناءً مِن الإعاقة الجسدية لِما تسببه من اعتلال وإرباك وتعطيل للقوى المعنوية، التي أُريدَ للإنسان أن يوظفها لسعادته، وسموه ورفعته، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى

(١) دعاء كميل.

ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[2].

وقد يتعايش الإنسان مع إعاقته الجسدية متقبلاً واقعه، وموظفاً ما أودعه الله من طاقات، وقدرات لِما فيه رفعته وتكامله ومجده، ولِما يخدم مجتمعه وأمته.

والتاريخ مليء بالشخصيات التي لم تقف إعاقتهم الجسدية مانعاً من المجد والخلود.

أما أصحاب الإعاقات والأمراض العصابية (العقلية)، والفصامية (النفسية)، والأخلاقية فلم تقتصر آثار إعاقتهم على أنفسهم، ودائرتهم الأسرية الضيقة فحسب، بل امتدت لتشمل مجتمعهم وأمتهم؛ لتعاني منهم الويلات.

ورغم هذا يمكن التخفيف من حدة الإعاقات المعنوية، بل تجاوزها، والقضاء عليها إذا حاول الإنسان رصدها وتوصيفها بدقة، ومعرفة كل مسارات الحركة والتأثر والتأثير فيما له علاقة بها، ووضع المخطط المناسب لمحاصرتها، وهذا يتطلب المحاسبة الواعية للنفس، كما سيأتي.

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

من استقراء المقطع السابق من دعاء كميل وغيره من الأدعية والنصوص الإسلامية نجد أنَّ المعوقات التي تقعد بالإنسان عن تكامله الأخلاقي، وتساميه الروحي، وتحجب دعاءه من العروج والاستجابة، منها ما هي فكرية ومنها النفسية والعملية، وهي على النحو الآتي:

أ/ المعوقات الفكرية

١- الجهل بالنفس وحسن الظن بها

تحمل لفظة النفس أكثر من دلالة لغوية، فتارة يقصد بها ذات الشخص المركب من روح وبدن، وتارة يقصد بها ورح الإنسان التي بها حياته وقوامه من علم وقدرة حركة، وقد يعبر عنها بالقلب وفي علم النفس الحديث يعبر عنه بالذات.

والذي نعنيه هنا: تلك القوة الخفية التي أودعها الله في الإنسان، والتي تتجاذبها نوازع الخير والفضيلة، ونوازع الشر والفضيلة، فيرقى الإنسان بتزكيتها إلى مدارج الكمال والرفعة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1] وقد يتسافل إلى أرذل مواقع الخيبة والخسران إذا ما استجاب لنداءاتها الشريرة، ورغباتها

(١) الشمس: ٩.

المنفلته ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّـٰهَا﴾[1].

وقد جاء: «كُن عدوَّ نفسك»، بمعنى عدو تلك النفس الأمارة بصفاتها الرذيلة، ونزعاتها الشريرة، وكما لا يثق الإنسان العاقل بعدوه، فهو لا يثق بنزعات نفسه وتسويلها.

فالجهل بالنفس، والجهل بالقيمة الإنسانية التي كرم الله بها الإنسان على سائر المخلوقات، وما يملكه من قدرات وقابليات من أكثر العوامل المعيقة للإنسان من السمو إلى كماله، وبناء ذاته[2].

يقول الشيخ الرئيس ابن سيناء:

هَذِّب النفسَ بالعلومِ لترقى
وذَرِ الكُلَّ فهي للكلِّ بيتُ
إنما النفسُ كالزُجَاجةِ، والعِلم
سِراجٌ، وحِكمةُ اللهِ زَيْتُ
فإذا أشرقتْ فإنكَ حيٌّ
وإذا أظلَمتْ فإنَّكَ ميتُ[3]

(١) الشمس: ١٠.
(٢) انظر كتابنا: محاسبة النفس وبناء الذات دار الأضواء ط ١ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
(٣) الشخصية الإنسانية... ص١٥٥.

٢- الغفلة

الغفلة التي تجعل صاحبها مسترسلاً في آماله الدنيوية، وطموحاته ورغباته، حتى ينسى أو يتناسى الغاية من وجودة، ويتيه عن أهم أولوياته، ويصبح أسير الأماني، وَ«**ومَن غفل غرَّته الأماني، وأخذته الحسرة**»[١].

ويتساءل الإمام الصادق عليه السلام؛ ليفصح عن حقيقة التنبه للعدو، وعدم الغفلة عنه ولو للحظة؛ لأنه يتربص بالإنسان الدوائر ويتحين الفرص للإيقاع به وإهلاكه: «**إنْ كان الشيطان عدواً فالغفلة لماذا؟!**»[٢].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في المناجاة الشعبانية: «**ولِتَطهِيرِ قَلبي مِن أوسَاخِ الغَفلَةِ عَنكَ**»[٣].

تواجدُ الأوساخ في أي مكان يثير في النفس الانقباض، والاشمئزاز، والتوتر، هذا على مستوى الظاهر، فكيف بالأوساخ اللصيقة بالذات الإنسانية، والتي لا تنفكُّ عن صاحبها ما لم يتدارك نفسه بالمحاسبة، والتهذيب، والتطهير، ويتعهدها بالرعاية من كلِّ منافذ

(١) بحار الأنوار ج٦٩ ص٨٩.
(٢) المصدر السابق ج٧٠ ص١٥٧.
(٣) المصدر السابق، ج٩١، ص٩٨.

الغفلة عن الله تعالى[1].

وأفضل ما نلجم به الغفلة من الاسترسال المراقبة للنفس؛ لأنَّ «**صرعة الاسترسال لا تُستَقَال**»[2] كما يقول

(١) من قصيدة: (كمال الروح) للمؤلف:

إنَّ الكمالَ تَوَحُّدٌ بمشاعرٍ
وخواطرٍ في مارجِ الأحياءِ
مَنْ كان قلبهُ بالفناء مُعَلقاً
خَسِرَ البقاءَ وعاشَ في النكباء
(خالفْ هواكَ) فما استقامة سالكٍ
إلا بترويضٍ وسمتَ حياءِ
واسحقْ لذاتِكَ كي تعيشَ مُعَزَزاً
ومكرما في زُمرةِ الأكفاء
واسمُ بروحِكَ للمعالي حالماً
مُتَجلبباً في الحق خير رداء
فعروشُ أفئدةِ الجمالِ حدائقٌ
تزهو بعشقٍ واحدٍ ونقاء
والقلبُ عرشُ الله لا يدخل بهِ
كِبرٌ وحقدٌ بعدَ طول جفاء
والقلبُ عرشٌ لا تعيشُ هواجسٌ
في جانبيهِ وشهوةُ الفحشاءِ
سلطانُ عِشقِ الله كلُّ جيوشه
لا تمزج الإيمان بالبغضاء
مَن كان بالبغضاء قلباً مشرعاً
ضلَّ الطريقَ وعاشَ في النكباء

(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٣٩.

الإمام الصادق عليه السلام، فالاطمئنان إلى النفس والثقة بها والاستغراق في مشاغلها دون المراقبة والمتابعة لمصادرها ومواردها يجعلها أسيرة صرعة الفوادح، وساقطة في المهالك. سُئِلَ العلامة الطباطبائي -صاحب تفسير الميزان قدس سره- و هو على فِراش المرض الذي توفي فيه: ما السبيل لحضور القلب في الصلاة؟

فأجاب: المراقبة المراقبة المراقبة.

وتكرار هذا العالم العارف لهذه المفردة دلالة على أهميتها ودورها المحوري في سمو النفس، وطهارة الروح.

ب/ المعوقات النفسية

١- الاغترار بالدنيا

يقول الشاعر:

إني اُبتُليتُ بأربعٍ ما سُلِطوا
إلا لجَلبِ مَتاعِبي وعنائي
إبليسُ والدُّنيا ونفسي والهوى
كيفَ الخلاصُ وكُلُّهم أعدائي؟!

ونقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**سَيِّدِيْ أَخْرِجْ حُبَّ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِي**» لأنَّه إذا تعلق القلب بشيء سَعَى إليه، وبمقدار

التعلق يكون السعي؛ لذا نلحظ الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تحثنا بأكثر من أسلوب وآخر على التعلق بالله والارتباط بالأنبياء والأولياء؛ لما في ذلك من أثر مصيري على سعادة الإنسان في الدارين، وتلك غاية أرادها الله لعباده.

كما تحذرنا من التعلق بالدنيا؛ لما في ذلك من تشتت، وشقاء، وانحراف عن الغاية الكبرى، وخروج عن مسار الفطرة النقية. فما هي هذه الدنيا التي حَّذرنا الإسلام منها؟

يعلمنا أمير المؤمنين عليه السلام كيف نكون من الدنيا على حذر؟ وأننا أكبر من أن نُسَلِّمَ زمامَ أنفسنا النفيسة والتي أراد لها الله الخلود للدنيا الزائلة ومشتهياتها. يقول مخاطباً الدنيا:

«يا دنيا يا دنيا إليكِ عني

أبي تعرضتِ

أم إليَّ تشوقتِ؟

لا حان حينُكِ!

هيهات، غُرِّي غيري

لا حاجة لي فيكِ

قد طلقتكِ ثلاثاً

لا رجعة فيها

فعيشكِ قصير

وخطركِ يسير

وأملكِ حقير

آه من قلة الزادِ

وطول الطريق

وبُعدِ السفر

وعظيمِ المورد»[1].

هكذا أمير المؤمنين لم يكن له مع الدنيا أي حساب، وكيف يكون كذلك وهو الذي يعتبرها كالجيفة المنتنة التي يفرُّ منها الرائي لبشاعة منظرها، ونتانة ريحها.إنه السالك الطموح إلى الخلود في حضيرة القدس ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[2]، وأنى لعلي أن يبيع ذلك النعيم الأبدي الخالد بلذة عابرة، وشهوة زائلة.

كُل ما يشغلنا عن الغاية التي وجدنا من أجلها فهو دنيا، وكل تعلق يبعدنا عن المحبوب الحقيقي فهو دنيا، وكل

(١) وردَ هذا الحديث عن ضرار بن حمزة الضبائي عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين، قال: فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائمٌ في محرابه، قابضٌ على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: «يا دنيا...» نهج البلاغة الحكمة: ٧٧.

(٢) سورة القمر، الآية ٥٥.

همٍّ لغير مبادئنا وقيمنا فهو دنيا، وبكلمة كل ما يبعدنا عن الله الكامل المطلق فهو نقص وفناء، لا يجُرُّ معه إلا الحرص والطمع والبغض والحسد والخيانة والفجور وكل المساوئ، ألم نقرأ في الحديث: «**حُبُّ الدنيا رأسُ كُلِّ خَطيئة**»[1].

فقد يكون المال والزوج والأولاد والمنصب والجاه دنيا، ولكن إذا لم تنتزع هذه الأمور صاحبها عن ربه ورضوانه، ولم تمل به عن أهدافه الكبرى، فهي نِعْمَ المعينُ على أمر الدنيا والآخرة.

لم يُرِدِ اللهُ للإنسان أنْ يكون منزوياً عن الدنيا ومتعها إذا ما أخذها من حِلِّها، واستعان بها على أمر آخرته، بالتوسعة على العيال، وإعانة الملهوف، ومساعدة المحتاج، والتنفيس عن المكروب، فإنَّ ذلك آخرة لا دنيا.

والإسلام دين التوازن والاعتدال في كل شيء، وما خرج عن حدِّ الاعتدال أصبح أساساً لأزمات ومشاكل متشابكة على مختلف جوانب الشخصية.

فالدنيا الممقوته هي تلك التي تجعل صاحبها مضحياً بمبادئه وقيمه؛ ليصبح عبداً مملوكاً لها، تأمره بالسوء فيأتمر، وتمنعه عن الخير فيمتنع، وقد أراد الله لهذا الإنسان أن يبقى حُرَّاً كما خلقه، فـ«**ليسَ الزهدُ أنْ لا تملكَ شيء، بل الزهد**

---

(١) بحار الأنوار، ج٥١، ص٢٥٨.

أن لا يملكك شيء»[1].

إنَّ سعادة العيش في هذه الدنيا تبدأ من وعيكَ لمنازل آخرتك، والمحطات العديدة التي تبدأ معك من ساعة الاحتضار والموت والقبر، وتمرُّ بك على ساحات المحشر والحساب والميزان، وتنتهي معك على الصراط، فإما إلى الجنة، وإما إلى النار -لا سمح الله- فإذا وعيتها جيداً فقد عرفت كيف تعيش في الدنيا، وكيف تتصرف مع الأشياء والأشخاص، كل ذلك لئلا تفوتك سعادتك الأبدية بعد موتك.وهذا ما تمناه لك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال: «**اجعل همتكَ لمعادكَ تصلح**»[2]،[3].

٢- طول الأمل

- الأمل نوعان:

أ/ أملٌ في الله، وهذا ما حبب إليه الإسلام ودعا إليها نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**يا ربِّ إنَّ لنا فيكَ أملاً طويلاً كثيراً، إنَّ لنا فيكَ رجاءً عظيماً**»[4]، وفي الحديث القدسي:

(١) انظر كتاب: ترنيمة الملكوت للمؤلف.

(٢) غرر الحكم: ١١٢.

(٣) سفر الآخرة عبد العظيم المهتدي البحراني مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت-لبنان ط ١ ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م ص ٥٧.

(٤) بحار الأنوار، ج٩٥، ص٨٥.

«لأقطعنَّ أملَ كلِّ مؤملٍ غيري بالإياس..»[1].

ب/ أملٌ في الدنيا، وكلُّ ما سوى الله فهو دنيا، وكلُّ ما يشغل الإنسان عن الله فهو دنيا، وبهذا يكون **«الأمل سلطان الشياطين على قلوب الغافلين»**[2]، وَ **«الأمل يفسد العمل، ويفني الأجل»**[3] فمن ابتلَيُ بالأمل في الدنيا أضحى رهين التسويف و **«الاتكال على الأماني بضائع الموتى»**[4].

الأمل الطويل، والإحساس بالتذلل والانكسار سمات مركوزة في الضمير الإنساني، وإذا لم تشبع في محراب العبادة سيخضع صاحبها في الدنيا متذللاً أمام سلطانٍ جائر، أو جمال زائل، أو معشوق زائف، وغيره![5].

وينبغي التنبه أنَّ الأمل في الله لتحصيل ما أحلَّ سبحانه من طموح وتطلعات هو ما يعطي للحياة معنىً وللجهد ثمرة.

أُعَلِلُ النفسَ بالآمالِ أرغبُهَا
ما أضيقَ العيشِ لولا فسحةُ الأملِ[6]

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٥٤.
(٢) أمير المؤمنين عليه السلام انظر غرر الحكم ص٥٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) مجموعة ورام، ورام بن أبي فراس، مكتبة الفقيه - قم، ج١، ص٢١٥.
(٥) انظر كتاب: ترنيمة الملكوت للمؤلف.
(٦) الحسين بن علي الطغرائي.

٣- سوء السريرة، وسوء الظن بالله

عندما يسيء الإنسان الظن بربه فإنه يُعرض روحه لظلمة لا تدانيها ظلمة، فكما أنَّ نية الخير، والظنَّ الحسن بالله وحب الخير للناس، وإضمار المحبة لهم تُشعر صاحبها بالطمأنينة والراحة والسعادة فإنَّ نيَّة السوء، وفساد السريرة تعذب صاحبها وتجعله فريسة الغم المستديم، والهمِّ المتأصل.

وعادة ما تكون الظنون السيئة من كثرة التمادي في الأعمال القبيحة، وقد أجاد المتنبي في بيان ذلك بقوله:

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونهُ
وصدَّقَ ما يعتادهُ من توهمِ[1]

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**عَوِّدْ نفسكَ حُسنَ النية وجميلَ القصدِ تُدرك في مساعيك النجاح**»[2].

وورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «**يا علي أفضل الجهاد مَن أصبحَ لا يهمُّ بظلم أحد**»[3].

---

(١) ديوان المتنبي.
(٢) غرر الحكم: ٥٥٠٩ ص ٣٠٤.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٤٦.

٤- الاستغراق في الهموم الشخصية

الاستغراق في الهموم الشخصية ومشاكل الحياة يُبعِدُ الإنسان تدريجياً عن عالم المعنى؛فيخفت لديه الشعور بأهمية الاستعداد للمستقبل الحقيقي (الأخروي)، وينعدم لديه القلق المثمر الذي يدفعه نحو تصحيح مسيرته، وتغيير واقعه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، ويضعف عن أداء الحقوق والواجبات، فـ«الهمُّ نِصفُ الهرمَ»[2] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

وينسب إليه قوله:

كُنْ عن همومكَ[3] مُعرضاً
وكِلِّ الأمورِ إلى القضا
الله عوَّدكَ الجميلَ
فَقِسْ على ما قَدْ مضى[4]

وللهموم أسباب كثيرة أهمها:

أ/ التهاون بالواجبات الدينية، والتقصير يالالتزامات

---

(١) الرعد: ١١.
(٢) نهج البلاغة الحكمة: ١٤٣.
(٣) أموركَ.
(٤) ديوان الإمام علي عليه السلام.

الدنيوية، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَن قصَّرَ في العملِ أُبتليَ بالهم، ولا حاجة لله فيمن ليس لله في ماله ونفسه نصيب**»[1].

ب/ هيمنة حب الدنيا على عواطف الإنسان وأفكاره، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**..ومَن لَهِجَ قلبُهُ بحبِّ الدنيا التاطَ قلبه منها بثلاث: همَّ لا يُغِبُّهُ، وحرصٌ لا يتركه، وأملٌ لا يُدرِكُهُ**»[2]، التاط: التصق.

وواحدة من هذه الآثار الثلاث كفيلة بتأصيل الأنانية في نفس المبتلى بها، والتي تعتبر من أشدِّ العقبات في طريق السمو الروحي والكمال الإنساني، فكيف إذا اجتمعت متعاضدة مع بعضها؟!

ج/ المعوقات العملية

١- الانسياق وراء الشهوات

إذا أضحى الإنسان أسيراً لشهواته المسعورة، ورغباته المحمومة، تأمره فيطيع، وينقاد إليها ذليلاً وَ «**عَبدُ الشهوة أذلُّ مِن عبدِ الرقِّ**»[3] لأن شهوات الإنسان ملازمة

(١) نهج البلاغة الحكمة: ١٢٨.

(٢) نهج البلاغة الحكمة: ٢٢٩.

(٣) أمير المؤمنين عليه السلام، غرر الحكم، ص٣٠٤، الحكمة رقم ٦٩٦٥.

له أكثر من ملازمة العبد لسيده، ولأنه بالانقياد المنفلت وراء الشهوات يُمَكِّنُ نفسَهُ الأمارة على وجوده، ويصبح عقله أسيراً لهواه؛ فلا ينتفع بنصيحة ولا يتأثر بموعظة **«غير منتفع بالعظات قلبٌ تعلَّقَ بالشهوات»**[1].

فالانجراف وراء الشهوات من غير ضبط إشباعها وفق الحاجة، وفي ظلِّ ما أباحته الشريعة يوصل الإنسان إلى أوحال الخطايا والذنوب.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«غالب الشهوة قبل قوة ضراوتها، فإنها إن قويت ملكتك واستقادتكَ، ولم تقدر على مقاومتها»**[2].

وإنَّ الشخصيات المؤثرة والملهمة للآخرين هي تلك الشخصيات القادرة على إدارة ذاتها، وضبط رغباتها ومشتهياتها.

٢-التمادي في الخطيئة

«ألا وإنَّ الخطايا خيلٌ شمسٌ حُمِلَ عليها أهلها وخُلعتْ لُجُمُهَا فَتَقَحَّمَتْ بهم في النار»[3].

---

(١) أمير المؤمنين عليه السلام، مستدرك الوسائل، المحدث النوري، مؤسسة آل البيت - قم، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ج١١، ص٣٤٥.

(٢) غرر الحكم ص٢٠٥ - للوقوف على شرح هذا الحديث انظر: العاطفة كالماء للمؤلف.

(٣) نهج البلاغة خطبة: ١٦.

كيف يسير الخيل غير المروض براكبه؟

وإذا انفرط اللجام عن الراكب ما حاله مع ذلك الخيل؟

كذا مَن تقحم الخطايا فلن تسير به إلا في مهاوي الردى. «...**فبئسَ المطيةُ التي امتَطَتْ نَفْسِي مِنْ هَوَاهَا، فَوَاهَاً لها لِمَا سَوَّلَتْ لَهَا ظُنُونُهَا وَمُنَاهَا، وَتَبَّاً لهَا لِجُرأَتِهَا على سَيِّدِهَا وَمَولاهَا**...»[1].

وهكذا يقسو قلب المتمادي في الخطيئة، وتسلب منه الرحمة، والرِقة، والانكسار والخضوع لله تعالى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما جَفَّت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لِكثرة الذنوب**»[2].وتقعد به أغلال الخطيئة والذنوب من التحليق في سماوات الفضيلة والخير، فلا يوفق للصلاح، والعبادة، وقيام الليل.

وتنهتك العِصَمُ التي أُودِعت في عمق فطرة الإنسان تدريجياً كلما تمادى الإنسان في المعصية والجرأة على الله، ويفتقد لروح الإيمان والحياء والتعقل. «**اللهُمَّ اغفر لي الذنوب التي تهتكُ العِصم**»[3].

---

(١) دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) غرر الحكم: ٦٩٨٥.

(٣) دعاء كميل.

٣-الصحبة السيئة

للأصدقاء والوسط الاجتماعي الذي يعيش به الإنسان بالغ الأثر في وعيه، وهمومه وتطلعاته، وتوجيه مسيرته على مختلف أبعاد شخصيته الدينية والثقافية والاجتماعية وغيرها، وأسوأ ما يمكن أن يضيع فيه المرء الوسط الموبوء بالانحراف والفساد، وسوء الصحبة التي تجعله يعضُّ يد الحسرة والندامة في الدنيا والآخرة إذ ينحرف به الصديق عن سِراط الله والغاية التي وجد من أجلها ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾[1] لماذا؟

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[2].

٤- الكسب والأكل الحرام

قال تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[3] يقصد بأكل السحت: مطلق التصرف بالمال الحرام، «الذي اكتُسِبَ من

(١) الفرقان: ٢٧-٢٨.
(٢) الفرقان: ٢٩ .
(٣) المائدة: ٦٣.

غير حِله مِن رِبا»، ورشوة، وأكل مال اليتيم، أو السرقة، والغصب، والاحتيال بكل أنواعه، ويدخل في ذلك الأموال المتعلق فيها حقٌّ شرعي.

للكسب والأكل الحرام الأثر التكويني الخطير على قلب الإنسان وسلوكه، ومصيره وقد شددت الروايات على ذلك أيما تشديد، فقد يضرب الكسب والأكل الحرم صميم فطرة الإنسان، وعقيدته بفعل التمادي في ذلك، فيقسو قلبه وتحجب عنه الحكمة، ولا يتأثر بالموعظة.عن النبي ﷺ: **«يا علي مِن أكلَ الحرام اسوَدَّ قلبه، وضعفت نفسه، وقلَّت عبادته، ولم تستَجَب دعوته»**.

لذا علل سيد الشهداء عليه السلام عدم استجابة المتجرئين على قتاله، حينما وعَّظهُم وخوفهم ورغبهم في خطبه وخطب أصحابه المتعاقبه بأن بطونهم مُلِئت حراماً.

كما أن للإفراط في الأكل والشرب بما يفوق حاجة الجسم الأثر السلبي على الصحة الجسدية، فهو أشدُّ أثراً على الحالة الروحية، قال ﷺ: **«لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب، فإنَّ القلب يموت كالزرع إذا كَثُرَ عليه الماء»**[1].

***

(١) تنبيه الخواطر ج ١ ص ٤٦.

من معوقات السمو الروحي

نقرأ في أدعية شهر رمضان المبارك «**وسلمني فيه من السأم، والضجر، والفترة، والكسل**» كل هذه العناوين تحتاج إلى دراسة مستقلة بذاتها؛ لما لها من خطورة تسهم في تعثر السالك وإعاقته، وعندما يذكرها الإمام فإنه ينبهنا إلى تلك الخطورة ويدعونا إلى الحذر منها، والمسارعة في معالجتها.

لماذا نكسل ونضجر ونسأم ولا نحمل لياقة المواصلة، ونتعثر في وسط الطريق إن لم يكن في بدايته؟

في مورد آخر يذكر الإمام هذه الحالة كمشكلة خطيرة يُفترض الوقوف الجاد عندها، ودراسة كل الافتراضات المتوقعة لها، ثم الوقوف على أهم الأسباب المركزية بعد دراسة الشخصية وواقعها النفسي والسلوكي.

«**اللَّهُمَّ إنِّي كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ تَهيأت وَتعَبَأت وقُمْتُ لِلصَلاةِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَنَاجَيْتُكَ أَلقَيتَ عليَّ نعَاساً إذَا أَنَا صَليت وَسَلَبتَني منَاجَاتكَ إذَا أَنا نَاجَيت، مَالي كلمَا قلت قَد صَلحَت سَريرَتي، وَقربَ من مَجَالس التَوابين مجلسي، عَرَضَت لي بَلية أَزَالَت قَدَمي وَحَالَت بَينَ وَبَينَ خدمَتك**»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٩٥، ص٨٥.

هنا حدد المشكلة أنَّ هناك بلية تعترض المؤمن في الوصول إلى صلاح نفسه، وسمو روحه، وتحرمه من التوبة النصوح، ويبين مظاهر هذا التراجع والتردي الخطير. وأن لهذا التراجع والانتكاسة الروحية مؤشرات، كما أشار في بداية هذا المقطع من الدعاء.

ثُمَّ يعرض لقائمة من الأسباب النفسية والعملية التي قد تتعاضد مع بعضها أو يتفرد بعضها بالسالك المريد، هذه الأسباب لها بيئتها التي تتكون فيها وآثارها.

«لَعَلَّك عن بَابكَ طَرَدتَني، وَعَنْ خدْمَتكَ نَحَيْتَني

أَوْ لَعَلكَ رَأَيْتني مُسْتَخفاً بِحَقِكَ فَأَقْصَيْتَني

أَوْ لَعَلَكَ رَأَيْتَني مُعْرِضاً عَنْكَ فَقَلَيْتَني

أَوْ لَعَلَكَ وَجَدَتَني في مَقَامِ الكَاذبين فَرَفَضْتَني

أَوْ لَعَلَكَ رَأَيْتَني غَيْرَ شَاكر لنَعْمَائِكْ فَحَرَمْتَني

أَوْ لَعَلَكَ فَقَدْتَني مِنْ مَجَالِس العُلَمَاء فَخَذَلْتَني

أَوْ لَعَلَكَ رَأَيْتَني في الغَافِلِين فَمِنْ رَحْمَتكَ آيَستَني

أَوْ لَعَلَكَ رَأَيْتَني آلف مَجَالِسَ البَطَّالِين فَبَيْني وَبَيْنَهُمْ خَلَّيتَني

أَوْ لَعَلَكَ لَمْ تُحِبَّ أَنْ تَسْمَعَ دُعَائِي فَبَاعَدْتَني

أَوْ لَعَلَكَ بجُرْمِي وَجَرِيرَتي كَافَيْتَني

أَوْ لَعَلَّكَ بِقِلَّةِ حَيَائِي مِنْكَ جَازَيْتَنِي»[1]

التعرض لسخط الله -الاستخفاف بشريعة الله والإعراض عنه - الكذب - كفران النعم - الغفلة - الابتعاد عن مجالسة العلماء والصالحين - الأنس بمصاحبة البطالين والخائضين في الباطل-قلة الحياء - ارتكاب الجرائر.

كل هذه أغلال تعيق الإنسان من سموه وكماله «**وقعدت بي أغلالي**»[2]، وإذا ما أخذنا هذه الافتراضات بنقيضها لوجدنا أنفسنا أمام عوامل ذلك السمو.

فتعظيم الله والإقبال عليه بالقلب والجوارح وصدق النية والإخلاص، والشكر له على جزيل إنعامه، والرضا بقضائه، ومجالسة من يربطنا به، ويشدنا إليه، والابتعاد عمن يبعدنا عنه من الغافلين والبطّالين، والحياء منه تعالى، كل هذا وغيره مدعاة لاستنزال فيض الله ولطفه.

ونقرأ في مورد آخر «**فرّق بيني وبين ذنبي المانع لي من لزوم طاعتك فإنما أسألك لعظيم الرجاء فيك**»[3] هنا يضعنا الإمام زين العابدين عليه السلام أمام أخطر أسباب ابتعادنا عن

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام.

(٢) دعاء كميل.

(٣) بحار الأنوار، ج٩٥، ص٨٩.

طاعة الله تعالى، وعدم مواصلتنا درب الطاعة، إنّه الذنب.

ولكلٍ ذنبه الذي يعيقه، مما يؤكد ضرورة التفحص للنفس، وما فيها من مساوئ وخطايا، وإلامَ ترجع هذه المساوئ؟ ألتأكيد رغبة، أم لإشباع شهوة أم ماذا؟

يُفترض فيمن أراد التألق والسمو الروحي ليعرج إلى سماوات اللطف وسُبُحات التقديس أن يكون عادلاً تقياً لا يترك واجباً ولا يفعل محرماً.

عندما تحدث حالة الانفصال التام بيننا وبين هذا السبب الجوهري، وتتحرر النفس من ذل الاستعباد للهوى سنذوق حلاوة الطاعة وعذوبة القرب منه تعالى «**إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنِس بقربك فابتغى عنك حولا**»[1].

***

وحماية الذات من هذه التحديات والجبهات الداخلية، الملازمة للإنسان في مسيرته، والخارجية المتغيرة والمتلونة بتغيِّر الظروف والملابسات يتطلب مقاومة، وجهاداً يتلاءم مع مستوى التحدي، وهذا ما عبَّر عنه الرسول الأكرم ﷺ

(١) الصحيفة السجادية من مناجاة المحبين للإمام زين العابدين عليه السلام.
انظر: ترنيمة الملكوت للمؤلف.

بالجهاد الأكبر.

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «**إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعثَ سرَيَّةً، فلما رجعوا قال: مرحباً بقومٍ قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر.قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟**

قال: جهاد النفس، ثم قال صلى الله عليه وآله: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»[1]

وتختلف تلك الدواعي والمعوقات في درجة حضورها وقوة تأثيرها من شخص لآخر، فما يقعد بفلان قد يختلف عما يقعد بغيره.

كما أنَّ هناك معوقات أخرى يندرج بعضها فيما أجملنا من عناوين، كالأمراض والرذائل الأخلاقية من حقد، وحسد، وغيبة، ونميمة، يمكن متابعتها في الكتب الأخلاقية، كما تركنا بعض هذه الإعاقات رغبة في الاختصار.

* * *

(١) بحار الأنوار ٧٠/ ٦٥.

الفصل الرابع

عوامل السمو الروحي

عوامل السمو الروحي

إنَّ الإعداد والتربية الروحية هي (الجهاد الأكبر) الذي يتطلب المعرفة الواعية بوسائل العدو الذي يريد انتزاع فطرتنا وتلويثها.

وتعتبر العبادة بمعناها الواسع والتي يجب أن يمارسها المكلف بتفهم ووعي هي المرتكز الذي يقوم عليها البناء الروحي، لأنَّ «نظام العبادات يعالج حاجة ثابتة في حياة الإنسان خُلِقت معه وظلت ثابتة قي كيانه على الرغم من التطور المستمرِّ في حياته»[1].

وَ«في ظِلِّ العبادة وفي ظل ذكر الله يرى الإنسان نفسه كما هي في الواقع، فيتنبه إلى نواقصه وعيوبه، ويصير إلى الوجود وإلى الحياة والزمان والمكان من الأعلى، وبالعبادة

(١) نظرة عامة في العبادات الشهيد السيد محمد باقر الصدر ص١٠ دار الكتاب الإسلامي ط١/ ١٤٢٣هـ.

يدرك تفاهة آماله المادية المحدودة، ويتحفز للسير وبلوغ مركز الوجود»[1].

كما يتطلب الاعتناء بالوسائل والعوامل المتاحة للوصول إلى كمالنا المنشود، هذه العوامل تتدخل مع بعضها لتسهم في انعتاق الروح من الأغلال الذاتية المعنوية والخارجية ومن هذه العوامل:

أ/ عوامل فكرية

١- الثقافة ووضوح الهدف.

«إنما يتحقق الكمال الواقعي للإنسان فيما إذا أخرج نفسه من مضيق الميول الحيوانية الدنية، وتعرف على الأفكار العالية، والآفاق الأكثر رحابة وسعة»[2].

والثقافة الإيمانية الأصيلة، ووضوح الهدف والغاية المنشودة؛ لأنه «**لا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لا يعمل فلا معرفة له، ألا إنَّ الإيمان بعضه من بعض**»[3] كما يُروى عن

(١) طهارة الروح مرتضى مطهري ص ١٥٥.
(٢) رسالة الأخلاق ص ٢٤٣.
(٣) الأصول من الكافي، الكليني، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٥هـ - ش. ج ١ ص ٤٤.

الإمام الصادق عليه السلام.

ومن أهم المعارف التي لا يصح تجاوزها الثقافة الفقهية، وبالخصوص ما هو محل ابتلاء من مسائل، كلٌ بحسب ظروفه ووضعه، وَ «**أفضل العبادة الفقه**»[1] وورد عن الإمام الكاظم عليه السلام قوله: « **تَفَقَّهُوا فِي دِينِ اللهَّ فَإِنَّ الْفِقْهَ مِفْتَاحُ الْبَصِيرَةِ وَتَمَامُ الْعِبَادَةِ وَالسَّبَبُ إِلَى الْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ وَالرُّتَبِ الْجَلِيلَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَفَضْلُ الْفَقِيهِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَى الْكَوَاكِبِ وَمَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ فِي دِينِهِ لَمْ يَرْضَ اللهُّ لَهُ عَمَلًا**»[2].

فالتفقه المقترن بالعقيدة السوية النقية القائمة على البرهان الثابت والبصيرة النافذة هو الطريق الموصل للكمال الإنساني.

ومن أكثر ما يثير الدهشة والاستغراب أن تجد مَن يتمنى الأماني العظام ولا يسلك طريقها، فهو ممن «**يرجو الآخرة بغير عمل، ويسوِّف التوبة بطول الأمل**»[3].

تَرجو النجاةَ ولم تسلكْ مسالكها
إنَّ السفينةَ لا تجري على اليبسِ[4]

(١) الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وسائل الشيعة، ج٢٠، ص٣٥٨.
(٢) بحار الأنوار، ج١٠، ص٢٤٧.
(٣) غرر الحكم، ص١٥٧، الحكمة رقم ٢٩٦٤.
(٤) ديوان الإمام علي عليه السلام.

فالتفقه في الدين يمثل أهم خطوات التكامل للشخصية.

«اللهمَّ أعطني بصيرةً في دينك وفهماً في حكمك، وفقهاً في علمك»[1].

والإلمام بالمعارف الأساسية من عقائد وأخلاق وغيرها، والمعرفة الواعية بالعوامل المؤثرة في الحراك السياسي والثقافي والاجتماعي، وسبل استثمار ما يمكن الاستفادة منه وتجاوز ومواجهة الأخطار المحدقة من الأوليات الأساسية في الشخصية الرسالية الواعية.

وبما أننا سائرون إلى الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[2] فلا بُدَّ من المعرفة بطرق السير التصاعدي.

وكما أن «بناء البيت ليس تكديساً للحجارة فالبناء الذاتي ليس تكديساً للمعارف والمعلومات» بل بتنظيمها وتوظيفها وفق رؤية ومنهج.

٢- التفكر بمعناه الواسع

وعلى الرغم من تأكيد الآيات القرآنية والأحاديث

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي، بحار الأنوار، ج٩٥، ص٩٢.

(٢) الانشقاق: ٦.

الشريفة على أهمية التفكر ودوره المصيري في حياة الإنسان إلا أن هذه العبادة لم تزل مجهولة، يعاني الإنسان تبعات إهمالها على أكثر من صعيد وآخر.

ومن مجالات التفكر الآتي:

أ) التفكر في المبدأ والمعاد

إذ يجب أن نعطي لأنفسنا فرصة الانطلاق إلى رحاب هذا الكون العظيم للتعرف على حكمة الخالق وعظمته وعلمه وإحاطته؛ ليتأصل فينا الشعور برقابته، والتفكر في عالم النفس، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

والتفكر في الغاية من وجودنا ومدى التزامنا بما نحن مسؤولون عنه يوم القيامة.

«روى حبه بن جوين بن علي بن فهم بن مالك، أبو قدامة العرين الكوفي قال: بينا أنا ونوف نائمين في رحبة القصر (قصر الإمارة في الكوفة) إذ نحن بأمير المؤمنين عليه السلام في بقية من الليل واضعاً يده على الحائط شبيه الواله، وهو يقول: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ »[1].

قال حبة: ثم دنا الإمام علي عليه السلام مني، وقال لي: **أراقد أنت يا حبة أم رامق؟**

قلت: رامق يا أمير المؤمنين. أنت أمير المؤمنين وتعمل هذا فكيف نحن؟

أرخى الإمام عليه السلام عينيه وبكى، ثم قال لي: **يا حبة، إنَّ لله موقفاً ولنا بين يديه موقفاً، لا يخفى عليه شيء من أعمالنا، يا حبة: إنَّ الله أقرب إليَّ وإليكَ من حبل الوريد، يا حبة: إنه لا يحجبني وإياك عن الله شيء.**

ثمَّ توجه إلى نوف، وقال: **أراقد أنت يا نوف؟**

قال: لا يا أمير المؤمنين، ما أنا براقد، وقد أطلت بكائي هذه الليلة.

(١) آل عمران: ١٩١-١٩٤.

فقال: يا نوف إن طال بكاؤك في هذه الليلة مخافة من الله تعالى قرَّت عينك غداً بين يدي الله عزَّ ووجل.

يا نوف: إنه ليس من قطرة قطرت من عين رجل من خشية الله إلا أطفأت بحاراً من النيران، إنه ليس رجلاً أعظم منزلة عند الله تعالى من رجل بكى من خشية الله، وأحبَّ في الله، وأبغض في الله.

يا نوف: إنه من أحبَّ في الله، وأبغض في الله لم ينل ببغضه إلا خيراً.

يقول حبة: ثم وعظنا الإمام وأنذرنا، وواصل أدراجه يمشي ويقول: ليت شعري في غفلاتي، أمعرض أنت عني أم ناظرٌ إليَّ، وليتَ شعري في طول منامي، وقلة شكري في نعمك عليَّ ما حالي؟»[1].

استحضار رقابة الله واحاطته

الله الحاضر الناظر، والمعطي الرازق، والمنعم المتفضل، والمالك المتصرف في الوجود، فكيف لمن استحضر ذلك التجرؤ على معصيته؟

(١) قصص الأبرار الشهيد مرتضى مطهري ترجمة: جعفر بهاء الدين مؤسسة أهل البيت عليهم السلام بيروت/ لبنان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ص ٢٠٧. نقلاً عن بحار الأنوار طبعة تبريز م/ ٩ ص ٥٨٩.

إنَّ السمو الروحي يزداد تألقاً وإشراقاً كلما تأصلت لدى المؤمن حالة الشعور بأنه في محضر الله حتى يمتلئ كيانه بتعظيم الله وخشيته، وهذا هو المفهوم العميق للتقوى، والتي عبَّر عنها رسول الله ﷺ بقوله: **التقوى ها هنا** (وأشار إلى صدره)[1].

«**التقوى: هي أن لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك**»[2]، هذا للإنسان المؤمن المنضبطِ يسبقه ويلازمه شعور برقابة الله تعالى، وإيمان راسخ بالغيب، والذي يتأصل بالتفكر، ونفض غبار الغفلة.

«روي أنَّ الحسين بن علي عليه السلام جاءه رجل، وقال: أنا رجل عاصي ولا أصبر عن المعصية فعظني بموعظة. فقال عليه السلام: **افعل خمسة أشياء واذنب ما شئت:**

فأول ذلك: لا تأكل رزق الله وأذنبِ ما شئت.

والثاني: أخرج من ولاية الله، وأذنب ما شئت.

والثالث: أطلب موضعاً لا يراك الله وأذنب ما شئت.

والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك وأذنب ما شئت.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٩٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٨٥.

والخامس: إذا أدخلك مالك في النار، فلا تدخل في النار وأذنب ما شئت»[1].

يركز الإمام عليه السلام في هذا الحديث على جانبين:

١- احاطة الله تعالى ورقابته

٢- عجز الإنسان وحاجته

ويخاطب الفطرة الإنسانية من خلال التأكيد على المسلمات العقائدية لدى السائل، فينبهه من غفلته؛ ليخرج بنتيجة تقنعه فكرياً دون التعرض لأنواع الذنوب وآثارها لكون السائل مدركاً لذلك.

* * *

كما أنَّ أعمال العبد محل اطلاع المعصومين، ومراقبة الملائكة المقربين له؛ليكونوا عليه من الشاهدين مع جوارحه، وقبل هذا وذاك اطلاع الله على ذلك وعلى ما خفي عنهم مدعاة لتأصيل الشعور بالمسؤولية أمام الله حتى مع غياب رقابة القانون، والمجتمع. «**...وَكُلَ سَيِّئَةٍ أمَرتَ بإِثبَاتِها الكِرامَ الكاتِبينَ الذين وَكلتَهُم بِحِفظِ ما يَكُونُ مني، وجَعلتَهُم شُهُوداً عليَّ مَعَ جَوارحي، وكنتَ أنتَ الرقيبَ**

(١) بحار الأنوار ج ٧٨ ص ١٢٦.

عليَّ مِن ورائِهِم، والشاهِدَ لِمَا خَفِيَ عَنهُم، وبرحمتكَ أخفيته، وبفضلكَ سترته»[1].

وعلى المؤمن أن «يفكر في رقابة الله العظيمة، وعلمه المحيط بالسِّرِ والعلانية، والصغيرة والكبيرة، وفي أخذه الشديد سيء العمل، وعذابه الأليم على موبق الخطيئة، فيستشعر الخوف من الله، خوفاً بالغاً يملك عليه إرادته، ويوقض ضميره، ويؤدب غرائزه وانفعالاته»[2].

ب) التفكر في ضرورة التوبة

لماذا لا يوفق البعض للتوبة النصوحة؟ ولم يتقدموا بأنفسهم حتى مع التفكر؟

لأنهم لم يعطوا لأنفسهم فرصة للتفكر في معطيات التوبة ومضاعفات البقاء على الخطيئة.

«إنَّ الإقرار بالذنب، وطلب العفو والمغفرة من ساحة قدس الله سبحانه وتعالى، يُذهب بلوث الذنوب من على وجهِ النفس وعزتها، ويستعيد السكون المفقود»[3].

---

(١) دعاء كميل،

(٢) إلى الطليعة المؤمنة محمد أمين زين الدين مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ط ١٤٠٥٣ /١٩٨٥م ص ٢٤٩.

(٣) رسالة الأخلاق ص٢٥٧ .

وَ «الشجرة في بدايةِ نموها وطراوة عودها يمكن تقويمها والتحكم فيها وتهذيبها بسهولة، ولكن حين يشتدَّ جذعها بمرور السنين الطويلة فإنه يصبح من الصعب علينا ذلك، وكذلك النفس يسهل التحكم فيها إذا لم تتلوث بالمعاصي.فالنبادر إلى التوبة النصوح بدون إهمال، وإلا فإنَّ القلب سوف يتلوث ويصبح قاسياً شيئاً فشيئاً وتكون العاقبة سيئة نعوذ بالله تعالى من سوء العاقبة»[(١)].

ج) والتفكر في التاريخ والاعتبار بأحوال الماضين

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «..**إني وإنْ لم أكن عُمِّرتُ عمر من قبلي، فقد نظرتُ في أعمالهم، وفكرتُ في أخبارهم، وسرتُ في آثارهم، حتى عُدتُ كأحدهم، بل كأني بما انتهى إليَّ من أمورهم قد عُمِّرتُ مع أولهم إلى آخرهم**...»[(٢)].

من خطبة للإمام زين العابدين عليه السلام في مجلس يزيد بن معاوية: «**أيها الناس أُحذركم من الدنيا وما فيها فإنها دار زوال وانتقال، تنتقل بأهلها من حال إلى حال، قد أفنت القرون الماضية، والأمم الخالية، الذين كانوا أطول**

---

(١) الحياة الخالدة في علم الأخلاق، آملي دار الهادي بيروت/ لبنان ط ١ هـ١٤١٦/ ١٩٩٦م ص٣٣.

(٢) من وصية للإمام علي لابنه الحسن عليهما السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين - نهج البلاغة الكتاب ٣١.

منكم أعماراً، وأكثر منكم آثاراً، أفنتهم الدنيا فكأنهم ما كانوالها أهلاً، ولا سكاناً -ثم قال- أفتطمعون بعدهم بالبقاء؟!هيهات هيهات... فتداركوا ما بقي من أعماركم بصالح الأعمال»[1].

كما أنَّ للتردد على مجالس الوعظ الأثر البالغ في توجيه بوصلة حياتنا نحو الاتجاه الصحيح، بعد أن عصفت بها مشاغل الحياة والغفلة عما ينبغي أن يُتَّجه إليه من أهداف مصيرية يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«أحيي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوِّهِ باليقين، ونوره بالحكمة، وذَلِّلْهُ بذكر الموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر، وفحش تقلب الليالي والأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من قبلك من الأولين، وسِر في ديارهم وآثارهم، وانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، وأين حلوا ونزلوا...»**[2]. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[3].

وقد أوردنا بعض الأقوال والصور التاريخية الجدير

---

(١) بلاغة الإمام علي بن الحسين عليه السلام، جعفر عباس الحائري، ط١ - ١٤٢٥هـ، دار الحديث للطباعة والنشر، قم - إيران، ص٢٩.

(٢) نهج البلاغة، الوصية: ٣١.

(٣) يوسف: ١٠٩.

بالتدبر والتأمل في الفصل السابع.

د) التفكر في الواقع

إن هناك حقائقَ في هذا الوجود لا يمكن معرفتها والقناعة بها من خلال المطالعة والتعلم فحسب، بل لا بدَّ من التفكر الواعي، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**استدل على ما لم يكن بما قد كان فإنَّ الأمور أشباه**»[1].

كثيرون هم الذين لا يراوحون مكانهم، ولم يتقدموا بأنفسهم خطوة نحو كمالهم.

وحتى حينما يريدون أن يتفكروا فإنهم يفكرون من موقع الأنانية المتجذرة في أعماقهم لا من موقع الحقيقة المحضة، وشتان ما بينهما!

وهذا ينعكس على الممارسة الحياتية العامة في معالجة القضايا الطارئة وغيرها.

فعندما يفكر بعضهم في دراسة قضية أو مشكلة ما أو موقف أو إبداء رأي فإنه يفتقد لأبسط أبجديات الموضوعية في التفكير.

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢٨.

٣- الاستفادة من التجارب

الاستفادة من التجربة الذاتية وتجارب الآخرين فَـ«**في التجارب علم مستأنف**»[١] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام، ويقول في مورد آخر: «**لِتستقبل بحدِّ رأيكَ من الأمرِ ما قَد كفاكَ أهلُ التجاربِ بُغيَتَه وتجربته، فتكون قدْ كُفيتَ مؤونةَ الطلبِ، وعُوفِيتَ من علاج التجربة...**»[٢].

واتخاذ المربي، أو المشير الناصح من ذوي الأهلية، والتجربة يختصر على السالك الكثير من الوقت والجهد والعناء؛ لأنَّ هؤلاء سيضعون تجاربهم وتجارب غيرهم بين يديه، يقول العارف الكبير السيد علي القاضي: «لو قضى الإنسان نصف عمره في البحث عن أستاذ كامل لم يقضِ شيئاً». يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**...واطلب مؤاخاة الأتقياء ولو في ظلمات الأرض، وإن أفنيت عمرك في طلبهم، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يخلق على وجه الأرض أفضل منهم بعد النبيين عليهم السلام وما أنعم الله على العبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾**[٣]»[٤].

---

(١) الكافي، ج٨، ص٢٢.

(٢) نهج البلاغة - الكتاب ٣١.

(٣) الزخرف: ٦٧.

(٤) بحار الأنوار، ج٧١، ص٢٨٢.

ب/ عوامل نفسية

١- الإرادة القوية الدافعة والمانعة

الإرادة الدافعة للخير والصلاح، والمانعة من الشر والفساد، والمؤدية إلى مخالفة الهوى، وضبط رغبات وشهوات النفس، والمقترنة بالصبر، قال الشاعر:

لأستَسهِلَنَّ الصعبَ أو أبلغَ المُنى
فما انقادتِ الآمالُ إلا لصابرِ

ولقوة الإرادة الأثر البالغ في شحذ همة النفس واستنفار الطاقة المعنوية والجسدية لتحقيق أهدافنا، يقول الإمام علي عليه السلام: «**ما ضَعُفَ بَدنٌ عما قويت عليه النية**»[١].

لأن قوة الدافع للعمل تعطي البدن قوة مضاعفة وتستنفر ما يختزنه من طاقة تجدد فيه الحيوية، وتمنحه النشاط.

لدى الإنسان مخزوناً هائلاً من الطاقة والقوة المضاعفة، والتي تظهر في حالات العسر والشدة، ولو أحسن استثمار هذه الطاقة لحقق الكثير من المنجزات الذاتية والاجتماعية.

ونلاحظ التأكيد على القوة في الأبعاد المتعددة لدى شخصية المؤمن باعتبارها من أهم الروافد الداعمة لتكامله

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٤٠٠، حديث رقم ٥٨٥٩.

وتحقيق مهمته في الحياة، جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»**[1] ولا يخفى أن قوة الإرادة، والعزيمة الإيمانية تأتي في طليعة ما يزخر به الحديث من معانٍ ودلالات.

وصاحب الإرادة: هو الذي يملك زمام نفسه، لا مَنْ تملكه نفسه!، وهو -صاحب الإرادة- لا ينفك عن التقوى والورع عمَّا حَّرم الله تعالى.

كما أنَّ المبادرة نحو الأعمال الصالحة من أهم مقومات التوفيق والنجاح في مختلف مناحي الحياة، ينسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

بادِرْ هواكَ إذا هَمَمتَ بِصَالحٍ
خَوفَ الغوالبَ أنْ تجيءَ فَتَغْلِبُ

إنها سمة الإنسان السوي في فطرته، المعتدل في انفعالاته، المتحرر من كل غلٍّ يقعد به.

وكما لا تنفع الرغبة بلا عمل كذا لا تنفع الإرادة الخاوية من الثقة بالنفس، والتي تعني -أي الثقة- الاطمئنان لقدرات الذات على تحقيق ما ترمي إليه، والإحساس بالقدرة الجازمة في التغلب على الصعاب.

---

(١) صحيح مسلم، مسلم النيسابوري، دار الفكر - بيروت، ج٨، ص٥٦.

«وعدم الثقة بالنفس يسبب لها الضعف، ويسلمها إلى القلق، ويوصد عليها باب اليقين»[1].

يقول الشاعر:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُن ذا عزيمةٍ

فإنَّ فسادَ الرأيِ أنْ تترددا

أما مَنْ أُبتلي بالضجر والكسل وضعف العزيمة، ولم يتدارك نفسه من تبعاتها فإنه سيبقى يحمل بضائع الموتى(الأماني).

قال الشاعر:

دعِ التكاسلَ في الخيراتِ تطلبها

فليسَ يسعدُ بالخيراتِ كسلانُ

ومما يُنسب للإمام علي عليه السلام قوله:

لو كانَ هذا العلمُ يحصلُ بالمُنى

ما كانَ يبقى في البريةِ جاهلُ

اجهَدْ ولا تكسلْ ولا تكُ غافلاً

فندامةِ العقبى لِمَن يتكاسلُ[2]

(١) إلى الطليعة المؤمنة محمد أمين زين الدين مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان ط ٣ ١٤٠٥/ ١٩٨٥م ص٢٩٣.

(٢) ديوان الإمام علي عليه السلام.

«اللهمَّ إني أعوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ وَالفَشَلِ وَالهَمِ وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ وَالغَفْلَةِ وَالقَسْوَةِ وَالمسَكَنَةِ وَالفَقْرِ وَالفَاقَةِ وَكُلِّ بَلِيَّةٍ وَالفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»[1].

٢- الانفراد بالذات

الوحدة لا تليق إلا بالواحد الأحد الفرد الصمد، غير أنَّ الإنسان لا غنى له عنها، في أوقات وظروف خاصة؛ لما لذلك من تأثير بالغ على شخصيته، «والإنسان السوي في حاجة دائماً إلى لحظات انفراد مع نفسه، وخلوة مع فكره.. وهي لحظات عزيزة لديه لا يُحِبُّ أن يقتحمها عليه أحد»[2]، في هذه اللحظات يراجع خارطة روحه وذاته.

يقول الشهيد مطهري: «لا بُدَّ للإنسان أن يخصص ساعة في يومه على الأقل لِذاته؛يعود خلالها إلى نفسه، وإلى ربه ويخلي الجو ويتفرغ بالتمام مع ربه، ولا يفكر في شيء آخر، ويباشر الدعاء والمناجاة والاستغفار»[3].

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي، بحار الأنوار، ج٩٥، ص٩٢.

(٢) الروح والجسد مصطفى محمود دار المعارف القاهرة ط ٧ ص٦٤.

(٣) طهارة الروح مرتضى المطهري إعداد: حسين واعظي نجاد ترجمة: خليل زامل العصامي دار المحجة البيضاء ط ١ ١٤١٨هـ ص ١٥٤.

وفي تاريخ الأنبياء، وسير العظماء يلاحظ ذلك الاهتمام البالغ، بالوحدة والانعزال، للتفرغ بمناجاة الواحد المتعال، وما الاعتكاف الذي شرعه الإسلام وحبب إليه إلا وسيلة من وسائل السمو الروحي، والوصول إلى درجات الكمال.

وفي الابتعاد عن الكثرات فترة من الزمن فرصة للتركيز في جمال الحق؛ لذا تجد التأكيد على قيام الليل؛ لما فيه من معطيات جلية ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـࣰٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[1].

ويقول الإمام العسكري: «**إن الوصول إلى الله عز وجل سفر لا يدرك إلا بامتطاء الليل**»[2].

وقد تكون العزلة والانفراد بالذات فرصة-لدى البعض- لبروز الوساوس النفسية، والهواجس الشيطانية، والخواطر الشاذة التي قد تقود بصاحبها إلى ما لا يُحمَدُ عُقباه.فالدعوة للانفراد بالذات للأسوياء البعيدين عن مثل هذه الانحرافات الشاذة، وللساعين لبناء ذواتهم.

٣- محاسبة النفس

الانفراد بالذات ومحاسبة النفس أمران متلازمان، إذ يُعتبر الانفراد بالذات شرط لأهم أنواع محاسبة النفس

---

(١) المزمل: ٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٨٠.

ونقد الذات.

وتتمثل محاسبة النفس: بالجلوس معها في جوٍّ هادئ بعيداً عن الصخب والشواغل، والمواجهة الشجاعة لها، واستحضار ممارساتها السلوكية ودوافعها النفسية، وأفكارها وقناعاتها، ومدى التزامها بعهدها، ووزنها بميزان الحق والقيم الدينية. ويمثل اعتراف النفس بسلبياتها ونواقصها، ورغبتها في تجاوز أخطائها الخطوة الأولى والأهم في طريق السمو الروحي.

وتتخذ محاسبة النفس عدة أبعاد: فهناك المحاسبة اليومية، والدورية، الأسبوعية، والشهرية والسنوية وغيرها، ومن خلال التلاوة والدعاء والإيحاء الذاتي.

هذه المحاسبة التي نتتبع من خلاله مظاهر الانحطاط في النفس فنهدمها، وبذور الانحراف فنصرمها، وترسبات الخطايا فنقلعها، ونعيد إعمار النفس وصقلها؛لتعود صافية بفطرتها.

وهي عملية مستمرة باستمرار فعالياتنا الفكرية والعاطفية وما يترتب عليها من ممارسات لفظية وحركية؛ لأنها عنوان يقظة الضمير وحركته[١].

---

(١) راجع كتاب: محاسبة النفس وبناء الذات للمؤلف دار الأضواء بيروت لبنان ط١ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

وَ «إذا أردنا أن نعرف أن الشيطان معنا أم لا نرجع إلى خواطرنا ونتصفح الماضي، وننظر ماذا مرَّ في أذهاننا؟، فما يجري في أذهاننا ليس من صنعنا، فإن كان حسناً فهو من تأييد الملائكة، وإن كان سيئاً فهو من عمل الشيطان، فإن كانت صفحة خواطر أنفسنا سوءً فهذا يعني أن نياتنا كانت سوداء، أو أنَّ سعينا وهمنا كان للدنيا الفانية، وهذه في الحقيقة وسوسات الشيطان لنا بواسطة الوهم والخيال الذي يزفه في أنفسنا ويتبين لنا من هنا أن الشيطان معنا»[1].

٤- التسلح بالصبر

وخير ضمانة لحفظ مكتسبات الروح وسموها، وبقاء الرصيد الإيماني في تنامٍ مستمر الوقوف عند الشبهات، والاحتياط في الدين «**وتَركِ كلِّ شائبة أولجتكَ في شُبهةٍ، أو أسلمتك إلى ضلالة...**»[2].

ولن يكون ذلك إلا بالتسلح بالصبر الذي هو «**مِنَ الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ مِنَ الجسد، فمن لا صبرَ لهُ لا إيمانَ له**»[3]، والمداومة على الفضائل، والثبات عليها، رغم ما

(١) أسرار العبادة جوادي آملي ص ٩٤.
(٢) نهج البلاغة - الكتاب ٣١.
(٣) أمير المؤمنين عليه السلام، بحار الأنوار، ج٦٨، ص٩٥.

يعترض النفس من مشاكل وابتلاءات، وهموم.يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين**»[1]، وَ «**لا يُعدمُ الصبورُ الظفرَ وإن طال بهِ الزمان**»[2].

ومن طبيعة الكائن البشري أن يستغرق في لحظته منفصلاً عن ماضيه ومستقبله، فما تلمُّ به مصيبة أو مشكلة أو بلية إلا وانطفأت فيه قناديل الأمل والتفاؤل، وأسلم فكره وقلبه لهذه البلية أو تلك المصيبة، فتعبث به، وتسلمه إلى الضعف والانهزام، وخصوصاً إذا كانت تلك البلية خارجة عن إرادته وقدرته، غير أنَّ الشخصية المؤمنة الواعية تجد «في الصبر عاقبة محمودة الأثر».

ج/ عوامل عملية

هذه العوامل لا تعطي أثرها إلا إذا اتصلت بالجانب المعنوي فكرياً وقلبياً، أما إذا أُديَت دون نية قُربى، ووعي، وتفهم، وحضور قلب فإنها ستصبح عملاً خاوياً بلا روح، مُفرغاً مِن معناه، وفاقداً للأثر.فالعلاقة بين جوانب الشخصية تكاملية، وهي كلٌّ لا يتجزأ كما أسلفنا.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، ص١٨١.
(٢) المصدر السابق، ج٦٨، ص٩٥.

ومن العوامل العملية البالغة التأثير في السمو الروحي:

١- ذكر الله تعالى على كل حال

ذكر الله تعالى على كل حال: حال الرضا والغضب، وحال اليسر والعسر، في الخلوة وبين الناس.

الذكر الذي يتزامن فيه التفتح الفكري والقلبي فيمتزج بالتعظيم لله تعالى، وحضور القلب، والتفهم لمعنى الذكر ودلالته. هذا الذكر الواعي الذي يعطي أثره في النفس والسلوك.

«الذكر بمعنى الاستحضار في النفس مقابل الغفلة وهي الغياب عن أفق النفس.وذكر الله هو استحضار صفات الله وأسمائه الحسنى وحضوره في الكون وهيمنته وقيموميته على الكون والإنسان في النفس، وهو نحو من المعايشة النفسية لصفات الله وأسمائه الحسنى وحضوره وهيمنته على الكون والإنسان، ومن ذلك الحمد والتسبيح والشكر والتكبير والتهليل والتمجيد والثناء. ومن ذكر الله أن يذكر الإنسان الله حين يهم بالمعصية فيردعه، وحين يتكاسل عن الطاعة فيقوده إليها، فإن ذكر الله يبعث في نفس الإنسان مخافة الله فيمتنع عن المعصية

ويقدم الطاعة»[1].

ففي ذكر الله حياة القلب وطمأنينته، وسكون النفس وراحتها، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**بِذِكرِكَ عاشَ قلبي، وبمناجاتِكَ برَّدتُ ألم الخوفِ من نفسي**»[2].

وَ «**أصل صلاح القلب اشتغاله بذكر الله**»[3]، و«**إذا رأيت الله سبحانه يؤنسك بذكره فقد أحبك**»[4] لأن «**الذكر لذة المحبين**»[5].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**ما من عبد يذكر الله في ملأ من الناس إلا ذكره الله في ملأ من الملائكة**»[6].

- ومن الأذكار المؤكد استحبابها:

أ/ الإكثار من الصلاة على محمد وآل محمد.

---

(١) تأملات في المعرفة والسلوك الشيخ محمد مهدي الآصفي دار الهادي ط ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص ٩٩.
(٢) دعاء أبي حمزة الثمالي، بحار الأنوار، ج٩٥، ص٨٩.
(٣) أمير المؤمنين عليه السلام، غرر الحكم، ص١٨٨، الحكمة رقم ٣٦٠٨.
(٤) أمير المؤمنين عليه السلام، غرر الحكم، ص١٨٨، الحكمة رقم ٣٦١١.
(٥) أمير المؤمنين عليه السلام، غرر الحكم، ص١٨٩، الحكمة رقم ٣٦٤٩.
(٦) بحار الأنوار، ج٧، ص١٥٩.

ب/ تسبيح الزهراء سلام الله عليها في دبر كل صلاة، وعند النوم، بالكيفية المعروفة.

ج/ التسبيحات الأربع وهي قول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

د/ الاستغفار

٢- تلاوة القرآن بتدبر وخشوع

فما كل مَنْ قرأ القرآن استضاء بمنهجة واستلهم معانيه.عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: **يرتلون آياته**

ويتفهمون معانيه

ويعملون بأحكامه

ويرجون وعده

ويخشون عذابه

ويتمثلون قصصه

ويعتبرون أمثاله

ويأتون أوامره

ويجتنبون نواهيه

ما هو واللهِ بحفظِ آياتهِ، وسَردِ حروفهِ، وتلاوة سوره، ودرسِ أعشاره وأخماسه»[1].

ويقول أمير المؤمنين في وصفه حال المتقين: «..**أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً. يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم. فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم. وإذا مروا بآيةٍ فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها**

---

(١) مجموعة ورام، مكتبة الفقيه - قم، ج٢، ص٢٣٦.

من قصيدة (ربيع القلوب) للمؤلف:

إذا ما تَلوتُ الذِّكرَ يخضعُ جانحي
وخشعةُ تعظيمٍ إلى خاطري تسري

فآياتُ شوقٍ تزرعُ القلبَ جنةً
تفوحُ بأزهارِ المحبةِ والشكرِ

وآياتُ تعظيمٍ تثيرُ جوانحي
وتخلعُ لي قلبي وتسلبني فكري

أحسُّ إذا الآياتُ تحكي جِنانَهُ
كأنَّ جِنانَ الخلدِ تُكشَفُ عن سِترِ

وأشعرُ أني في الجحيم مصفداً
إذا ما قرأتُ آيةَ الخوفِ والزجرِ

وأسري مع الآفاق بالفكر سابحاً
أرى آيةَ الإبداعِ والخلقِ والأمرِ

في أصول آذانهم...»[1].

عندما نتدبر عظمة المنزل للقرآن، وعظمة آياته، ونحاول تفهم معانيها ودلالاتها التي لا حَدَّ لها ولا منتهى، فإن القلوب تلين لذلك الذكر الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[2] وتتعظ بزواجره ونواهيه، وتسَلِّمُ بأوامره وإرشاداته. وكلما ازدادت معرفتنا بالفرقان الحكيم ازداد تعظيمنا له، وتقربنا إليه، واستلهامنا من معينه.

٣- قراءة الدعاء بوعي وتفهم

الدعاء مدرسة وعلى الراغب في دخولها التعرف على شروطها وآدابها[3].

و «لا تنال خير الدعاء والإجابة كاملاً إلا إذا اتصف سرّك وروحك وقلبك بصفات الدعاء.بأن يكون المنشئ لعبارات الدعاء سِرّك وروحك وقلبك فإذا قلت: «**يا مَن**

(١) نهج البلاغة الخطبة: ١٩٣ خطبة المتقين، وهي من أنفس خطب أمير المؤمنين عليه السلام، وكل خطبه وأقواله نفيسه.يصف فيها حال المتقين بتصوير بديع، حتى كأنهم أمامك شاخصين ترى سمتهم وتأنس بعبادتهم وتستعذب تلاوتهم..

(٢) سورة فصلت، الآية ٤٢.

(٣) عن مفهوم الدعاء وشروطه وآدابه وآثاره ودلالاته راجع كتابنا: (ترنيمة الملكوت).

أرجوه لكل خير» تكون راجياً لله بسرك وروحك وقلبك، ويظهر آثار ذلك في عملك، وَ «مَن رجا شيئاً طلبه»...وقس على الرجاء غيرَه من مطالب الدعاء من التسبيح والتهليل والتحميد والتضرع والاستكانة والخوف والاستغفار والتوبة، فإنَّ كل ذلك له حقائق ودعاوى»[1].

والمؤمن إذا امتلأ شعوره بتعظيم الله تعالى صَغُرَ ما دونه من المخلوقين؛ فلا ينكمش أمام غيره، مهما كان كبيراً، إنها عزة الله التي يهبها لمن يشاء من عباده.

٤- الأجواء الإيمانية

المتمثلة في مجالسة العلماء الربانيين، والشخصيات الرسالية الواعية، وقد رغبت الروايات على ذلك لما تعكسه من أثر في تنبيه الإنسان من سِنة الغفلة، وتغيير لسلوكه، جاء في الحديث: «**زيارة العلماء أحبُّ إلى الله تعالى من سبعين طوافاً حول البيت**»[2].

وروي أنه «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ

(١) لقاء الله رسالة في السير والسلوك الحاج ميرزا جواد الملكي التبريزي ترجمة: عبد الهادي الركابي مكتبة فخراوي ط ١ ٢٠٠٢م- ١٤٢٣هـ ص ١٠١ (بتصرف) نقلاً عن المراقبات للميرزا الملكي التبريزي .

(٢) بحار الأنوارج ١ ص ٢٠٥.

فقال: يا رسول الله اتفقت جنازة ومجلس عالم في وقت واحد، فأيهما أحبُّ إليكَ أن أشهد؟

فقال رسول الله ﷺ: **إن كان للجنازة من يتبعها ويدفنها فإنَّ حضور مجلس عالم أفضل من حضور ألف جنازة، ومن عيادة ألف ألف مريض، ومن قيام ألف ليلة، ومن صيام ألف يوم، ومن ألف درهم يتصدق بها على المساكين، ومن ألف حجة سوى الفريضة، ومن ألف غزوة سوى الواجبة تغزوها في سبيل الله بمالك ونفسك، فأين تقع هذه المشاهد من مشهد عالم؟ وخير الدنيا والآخرة مع العلم، وشرُّ الدنيا والآخرة مع الجهل»**[1].

بالإضافة إلى حضور مجالس الذكر، والدعاء، والصداقات الهادفة، يقول الشاعر:

صاحبْ أخا ثقةٍ تحظى بصحبتِهِ
فالطبعُ مُكتسبٌ من كُلِّ مصحوبِ
كالريحِ تأخذُ ما تمرُّ بهِ
نتناً من النتنِ أو طيباً من الطيبِ

والوسط الاجتماعي المساعد على التدين والانضباط، واتخاذ القدوة الصالحة من أهم الوسائل المساعدة على السمو الروحي.

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ١١٦.

ويصف القرآن الكريم المؤمنين الذين استثناهم من الخسران المبين بأنهم ملتزمون بمبدأ التواصي فيما بينهم على التمسك بالحق والصبر في طريقه مهما كلفهم من تضحيات، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[3]. بحضور هذا المبدأ الذي غيبه البعض في لحظات أحوج ما يكون إليه مراعاة لاعتبارات خاصة.

على العكس من مجالس اللهو، والفساد، والتي لا تتورع من الخوض في الباطل، نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**أمْ رأيتني آلِفَ مجالسَ البطالين فبيني وبينهم خليتني**»[4]. يقول الله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾[5].

«نحن إذا استطعنا أن نسيطر على أنفسنا، ونجعلها

(١) العصر: ١ - ٣.
(٢) البلد: ١٧.
(٣) الكهف: ٢٨.
(٤) راجع كتاب: الصداقة من واقع التجربة للمؤلف.
(٥) الأنعام: ٧٠.

خاضعة لإرادتنا، عند ذاك نكون في راحة ورضا، ولا يتم ذلك إلا بالعبادة، ونبذ الأحقاد، وترك الاختلاف والفرقة التي منشؤها حب النفس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصايا له: «**إياكم والتباغض فإنها الحالقة للدين**»[1]، و«**الخصومة تمحق الدين و تحبط العمل و تورث الشك**»[2].

٥- العدالة في التعامل

العدالة في التعامل مع الذات والآخرين، كثيراً ما نظلم أحب الأنفس إلينا وهي نفسنا؛ بإقحامها في موارد المهالك، وكثيراً ما ننكر على الناس إجحافهم في حقنا وظلمهم لنا، ولا ندين أنفسنا التي طالما أجحفت بحق الله تعالى وحقوق عباده!.

الحياة شراكة والفرص فيها يجب أن تكون متكافئة، وكما لنا على غيرنا حقوق وواجبات فللآخرين حقوق وواجبات، وليس لأحد امتياز على أحدٍ إلا بما يحمله من علم وتقوى.

على الرغم من وضوح هذا المفهوم إلا أنَّ قلَّ من يتمثله كواقع في ممارساته السلوكيه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**...يا بُني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحبُّ لنفسكَ، واكره له ما تكره لها، ولا**

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٦.

(٢) التوحيد، ص٤٥٨.

تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم، ولا تقل ما لا تحب أنْ يقال لك»[1].

وعندما تتأصل نزعة الهدم لدى إنسانٍ ما يبتعد عن رؤية حقيقة نفسه بمقدار ما يقترب من تحسس عيوب الآخرين وأخطائهم **«يستعظِمُ من معصية غيره ما يستقلُّ أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن، ولنفسه مداهن...يحكم على غيره لنفسه ولا يحكم عليها لغيره»**[2].

***

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الالتزام بما جاء في الشريعة الغراء من واجبات والابتعاد عن المحرمات، وبمعنى آخر تمثل العدالة بألا يترك المكلف واجباً ولا يفعل محرماً كفيل في وصوله إلى الحدِّ المتوازن من السمو الروحي.

والسمو الروحي الذي يتناسب مع طبيعة الدور الرسالي، أو التحدي الخطير الذي تواجهه الشخصية

---

(١) نهج البلاغة الكتاب: ٣١.

(٢) نهج البلاغة الحكمة: ١٥٠.

المؤمنة- مِن مقاومة إغراء هنا، ومواجهة هجمة مشبوهة هناك، قد تستهدف الهوية الإسلامية، كل ذلك يتطلب العناية (بمحطات التعبئة الروحية)[1] اليومية كأوقات الصلاة والنافلة، والأدعية اليومية والأسبوعية كدعاء كميل، والزيارة الجامعة، والشهرية كصدقة أول الشهر والصيام المستحب، والسنوية كشهر رمضان والحج. وممارسة ما أمكن من المستحبات وترك المكروهات.

ومِن المستحبات المؤكدة -مما لم نذكره سلفاً- التي تُسهم في سمو الروح وتكاملها:

١- الصدقة، وهي خير ما نقدِّمه أمام حوائجنا ودعائنا، وهي نوعان:

- صدقة السر.
- صدقة الجهر.

وقد دعت الشريعة إلى كلتيهما، وأكدت صدقة السر؛ لما فيها من تأكيد للإخلاص لدى المتصدِّق، وحفظ لماء وجه المتصدَّق عليه. أما صدقة الجهر فترجح إذا كانت

(١) للتوسع في ذلك راجع: الجفاف الروحي الأسباب والعلاج السيد عبد الله الغريفي مؤسسة العارف للمطبوعات بيروت - لبنان ط ٢ ٢٠٠٤م/ ١٤٢٥هـ ص ٤٥-٥١.

مدعاة لدفع وتشجيع الآخرين على الإعطاء.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»**[1].

٢- النوافل، وبالخصوص صلاة الليل.

قال ﷺ: **«إن الله تعالى يقول لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل مخلصا لي حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به و يده التي يبطش بها إن سألني أعطيته و إن استعاذني أعذته»**[2].

٣- الصوم.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ: **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ هُوَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَهُوَ لِي وَ أَنَا أَجْزِي بِهِ»**[3].

٤- زيارة المعصومين عليهم السلام لما في زيارتهم من استحضار وتمثل لتاريخهم المجيد.

٥-حضور المآتم الحسينية، ومجالس الذِكر.

***

(١) الكافي، ج٤، ص٧، باب فضل صدقة السر.
(٢) إرشادالقلوب، ج١، ص٩١.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٠، ص٤٠٣.

الفصل الخامس

الوعي العبادي

الوعي العبادي

الأسلوب القرآني في الدعوة إلى اللّه

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

تتعدد أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الله، ومنها:

١- الأمر المباشر، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[2].

٢-النهي المباشر، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) الزمر: ١٧-١٨.

(٢) الحشر: ١٨.

ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[1].

٣- تشخيص المبدأ في صورة حية وكأنها شاخصة أمامك تحسها وتراها، كقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾[2].

٤-توظيف القصة بعرض المبدأ أو العبرة في أولها أو بين فصولها أو آخرها، كما في قصة النبي يوسف ونوح وموسى وغيرها.

لماذا تنوع الأسلوب؟

لأنَّ الله أراد لنا أن نعيش مبادئ الإسلام وقيمة في كل زاوية من زوايا عقولنا وقلوبنا، لنعيشه فكراً وقلباً وسلوكاً، فقد لا يدرك المتلقي أسلوب ما فالأسلوب الآخر كفيل بالتأثير فيه.

كما أن لكل مبدأ الأسلوب القرآني الذي يناسبه تبعاً للسياق الذي جاء فيه.

---

(١) الحجرات: ١٢.
(٢) الفرقان: ٦٣ - ٦٤.

مَن هم عباد الرحمن؟

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

الطاغوت: كل مطاع سوى الله، فالهوى طاغوت، والشيطان طاغوت، والمنحرفون الذين يدعون الناس إلى طاعتهم من دون الله طواغيت.

•

وعباد الرحمن هم الذين واجهوا النفس الأمارة، وألجموها عن معصية الله، واستعاذوا من الشيطان؛فابتعدوا عن خطواته وهمزه ولمزه وتثبيطه وإغوائه، ولم يخضعوا للطغاة العاصين ولم يركنوا للظالمين، فأنابوا إلى الله والتجئوا إليه لهم من الله البشرى، وحازوا بجهادهم أعظم أوسمة الشرف وهو صفة العبودية.

ومن صفاتهم أنهم يملكون فكراً ناقداً، وبصيرة نافذة تميز بين الحسن والقبيح، بل بين الحسن والأحسن، ولا تكتفي هذه الشخصيات القرآنية بالحسن من الأقوال والمواقف بل تتطلع دائماً لاتخاذ الأحسن واتباعه.

(١) الزمر: ١٧-١٨.

إنَّ المؤمن الواعي يتلقى الآراء والأحداث والمواقف المتعددة المسموعة منها والمرئية فيقوم بغربلتها وتفحصها وقياسها بمعيار العقل والدين، فيتخذ الموقف الأحسن، إنه يعيش استقلالية الموقف، ولا يتأثر بالعقلية الجماعية التي قد تقع أسيرة الأهواء والصيحات المضللة من هذه الجهة أو تلك.

إنَّ ما أهَّلَ هؤلاء لهذه القدرة التحليلية للمفاضلة بين المواقف وما تتلقاه من مسموعات ومرئيات، وبهذه البصيرة النافذة حرصهم على بقاء فطرتهم نقية صافية، للاحتفاظ بحريتهم شامخة أمام تحدي الطاغوت بكل أشكاله وصوره.

إنهم حريصون على معرفة الواقع المحيط بهم، فَـ«**العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس**»[1] كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام.

هذا الوعي في حقيقة العبادة ومفهومها الحركي الذي يمتد في كل مجالات الحياة؛ليجعل من الإسلام ديناً حاضراً في كل همسة ولمحة وحركة وموقف «**واجعل همساتِ قلوبنا، وحركات أعضائنا، ولمحات أعيننا في موجبات ثوابكَ**»[2].

***

(١) أصول الكافي، ج١، ص ٢٦.
(٢) الصحيفة السجادية.

استثمار الوقت في ديمومة الاتصال بالله تعالى

ومن السمات البارزة لهذه الصفوة ديمومة الاتصال بالله تعالى، فالحياة عندهم بكل تفاصيلها وتداعياتها ما هي إلا محراب عبادة لله جلَّ ذِكرُه، والتطلع والطموح الدائمين في السمو بالروح إلى أقصى ما يمكنها من أسباب التقرب لله تعالى.

نقرأ في دعاء كميل: «**أسألُكَ بِحَقِكَ وقُدسِكَ، وأعظَمِ صِفاتِكَ وأسمائِكَ، أن تجعَلَ أوقاتِي من الليل والنهارِ بِذِكرِكَ معمورة، وبخدمَتِكَ موصولة، وأعمالي عندك مقبولة، حتى تكون أعمالي وأورادي كلها عندك ورداً واحداً وحالي في خِدمتكَ سرمدا**».

إنها كلمات تحدد الغاية والوسيلة والجو العام الذي ينبغي أن يهيمن على صاحب هذه المطامح العالية.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1] يسأل الله مقسمًا عليه بحقه، وقدسه، وأعظم صفاته وأسمائه، وليس هناك من قسم أجلُّ وأعظم من هذا القسم، مما يدل على الأهمية العظيمة لما يراد بهذا القسم.

يعلمنا أمير المؤمنين عليه السلام أن نجعل من هذا العمر سجدة خاشعة متصلة بالله تعالى، ولا نلتفت فيه إلى غيره،

(١) سورة الواقعة، الآية ٧٦.

في جميع فعالياتنا اللفظية والحركية، لماذا؟

«حتى تكون أعمالي وأورادي عندك ورداً واحداً، وحالي في خدمتكَ سرمداً».

إنَّ المؤمن الواعي المتطلع إلى هذا التألق في علاقته بالله لا مجال لديه في التفكير في معصية الله تعالى، فضلاً عن فعل المعصية ذاتها.

ومن الواضح أننا لا نعني بديمومة الاتصال بالله تعالى هو أن نستثمر أوقاتنا في المعنى العرفي المألوف للعبادة، من صلاة، وصيام، وذكر، و... فحسب، بل التعايش في الحياة باستحضار رقابة الله وشريعته، في كل علاقاتنا وفعالياتنا، والسعي الدائم لاستثمار الوقت (العمر) الذي وهبنا الله إياه بأقصى ما يمكننا؛ لأن أوقاتنا حياتنا، فكيف سنحافظ عليها؟

يقول صفي الدين الحلي:

ومَن ضَيَّعَ الأوقاتِ ضاعتْ حياتُهُ
وعاشَ فقيراً جاهلاً ليسَ يُشكَرُ

والإنسان الذي لا يكترث بوقته وعمره، ولا يوجهه لِما فيه نفعه وخيره مبغوضٌ عند الله، ثقيل على الناس، وعبء على الحياة، يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «**إنَّ الله**

ليُبغِضُ العبدُّ النَّوام، إنَّ الله ليبغضُ العبد الفارغ»[1].

النَّوام صيغة مبالغة على وزن (فعَّال) وهو كثير النوم، الذي يسرف في استقطاع وقت النوم لما فوق حاجته، ويعطل مسؤولياته الأخرى، حتى ليحوله إلى غاية، يعطل طاقته، ولا يسهم بأي إنتاج يعمر من خلاله الأرض، ويسهم في منظومة البناء الذاتي والاجتماعي.

ناهيك عما يسببه الفراغ من مفاسد ومهالك، لأنَّ «**مِن الفراغ تكون الصبوة**»[2] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام، و«**النفس إذا لم تشغلها شغلتك**»، كما ورد، ويقول الشاعر:

إنَّ الشبابَ والفراغَ والجِده
مفسدةٌ للمرء أيُّ مفسده

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن يكُن الشُّغلُ مجهدةٌ فاتصالُ الفراغِ مفسدة**»[3].

والقرآن الكريم يدعونا إلى استغلال الفراغ في الاجتهاد بالتعبئة الروحية، قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[4].

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص١٦٩.
(٢) غرر الحكم، ص٣٢٥، الحكمة رقم ٧٥٩٣.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٤٢١.
(٤) الانشراح ٧-٨.

وفي الصحيفة السجادية: «...**وإذا قدَّرتَ لنا فراغاً من شغل، فاجعله فراغ سلامة، لا تدركنا به تبعة ولا ندامة...**».

فالعمل والانشغال بالهوايات المفيدة من أهم عوامل الصحة النفسية واستقامة الشخصية.

ومن أهم أسباب انعدام أو ضعف الاستفادة من الوقت انعدام الهدفية أو ضبابية الرؤية، فالإنسان بلا هدف كالسفينة بلا مقصد تتقاذفها الأمواج!.

وقد يكون له هدف ولكنه لا يخلص لأجل إنجاحه، والوصول إليه.

تنظيم الوقت وجوانب الشخصية

أقسم الله تعالى بالزمن في العديد من سور القرآن وآياته بل سُمّيت سور بكاملها ببعض مسمياته، كـَ: (العصر، الفجر، الضحى، الليل) ناهيك عن الكثير من الآيات القرآنية التي أشارت للوقت؛ لِما يمثله من قيمة في حياة الإنسان، بل هو حياته.

ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام قوله: «**اجْتَهِدُوا فِي أَنْ يَكُونَ زَمَانُكُمْ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ:**

سَاعَةً لِمُنَاجَاةِ اللهِ

وَسَاعَةً لِأَمْرِ المَعَاشِ

وَسَاعَةً لِمُعَاشَرَةِ الْإِخْوَانِ وَالثِّقَاتِ الَّذِينَ يُعَرِّفُونَكُمْ عُيُوبَكُمْ وَيُخْلِصُونَ لَكُمْ فِي الْبَاطِنِ

وَسَاعَةً تَخْلُونَ فِيهَا لِلَذَّاتِكُمْ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ وَ بِهَذِهِ السَّاعَةِ تَقْدِرُونَ عَلَى الثَّلَاثَةِ سَاعَاتٍ»[1].

هذه التوصية القيمة تؤكد على ملاحظة جوانب الشخصية في تقسيماتنا للوقت، ففيها تأكيد على الجانب الروحي والعلاقة مع الله تعالى، «ساعة لربكم».

والجانب الاقتصادي المعيشي والمتمثل في تحصيل أسباب الرزق الحلال، لتوفير ما يلزمنا من احتياجات لأداء مهمتنا ورسالتنا في الحياة، ولكي لا نكون عالة على أمتنا ومجتمعنا.

والجانب الاجتماعي المتمثل في العلاقات الهادفة مع مَن «يُكنون» أي يضمرون لنا النصيحة وحب الخير في صدورهم، وينعكس ذلك على تصرفاتهم.

ثم التأكيد على أهمية الترويح والتنفيس عن النفس والاستمتاع بالحياة في (لذةٍ في غير محرم)، وتأكيد الإمام

(١) بحارالأنوار، ج٧٥، ص٣٢١.

على هذه الساعة لما لها من أهمية في تجديد نشاط النفس في التواصل العبادي والاجتماعي وسائر نشاطاتنا.

إنَّ أي إخلال في مثل هذا التقسيم كأن يسطو الجانب الاقتصادي مثلاً على حساب البُعد العبادي، وأداء ما افترض الله علينا من واجبات، سيؤدي حتماً إلى اختلال واضطراب وتوتر في جوانب الشخصية الأخرى، ولا تسكن نفوسنا ولا تستقيم حياتنا إلا إذا أعطينا كلَّ جانب حقه من الاهتمام.

لذا يتلمس الكثير منا حالات من الضجر والسأم والتبرم والضيق، ولا يعرف لذلك سبباً واضحاً، في حين أن السبب يكمن في طغيان اهتمامنا على جانب أو جانبين من جوانب وأبعاد شخصياتنا على حساب الجوانب الأخرى.

الكثير من الطامحين في سلوك طريق التكامل الروحي ينظر إلى الترويح والمرح والاستمتاع بما وهبنا الله من مُتَعِ الحياة على أنه نوعٌ من الصدود، والغفلة عن الله، وهذا صحيح إذا ما تحوَّل ذلك إلى هدف وغاية في الحياة لا وسيلة!.

وهذه النظرة ناشئة من طبيعة بعض الخطابات التربوية والدينية المفتقرة للشمولية.

ولكن وفقاً للتقسيم الزمني الذي أورده الإمام عليه السلام فإنَّ ذلك يعتبر محطة استراحة، وحاجة ملحة للنفس،

كحاجة الجسم للنوم؛ لمعاودة نشاطه اليومي، وقد جاء في الحديث: «**روحوا قلوبكم فإنها إذا أكرهت عميت**»[1] ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن هذه القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحِكَم**»[2]. ويقول: «**إنَّ للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قِبل شهوتها وإقبالها فإنَّ القلب إذا أُكرهَ عَمِيَ**»[3].

ويقسم علماء الإدارة الوقت إلى ثلاثة أقسام:

١- وقت العمل

٢- وقت النوم

٣- وقت حر: وهو الوقت الذي يستطيع فيه الإنسان ممارسة الأنشطة بأنواعها من غير التزام بما فرضه على نفسه من برامج. وهو فرصة لإشباع الحاجات العقلية باكتساب المزيد من المعارف والخبرات، والحاجات الاجتماعية، بالتواصل مع الآخرين بشتى أطيافهم، والحاجات الجسمية بممارسة الرياضة، وتنشيط الدورة الدموية[4].

(١) عوالي اللآلي، ج٣، ص٢٩٦.
(٢) نهج البلاغة الحكمة: ٩١.
(٣) نهج البلاغة الحكمة: ١٩٣.
(٤) هناك الكثير من الدراسات والأبحاث في فن إدارة الوقت واستثماره، ليست محل بحثنا. يمكن متابعتها في مجالها..

وواضح الفرق بين التقسيمين، وما في التقسيم الأول من تعميم، وتقسيم الإمام من توازن وشمولية.

***

ونلمح هذا التطلع في أدعية أهل البيت صلوات الله عليهم، إذ يمثل التفتح العقلي، والسمو الروحي، والكمال المعنوي في أسمى صوره من أجل مطامحهم وآمالهم، «**قَوِّ على خِدمَتِكَ جَوَارِحي، واشدُد على العَزِيمةِ جوانحي، وهَب لي الجِدَّ في خشيتك، والدوام في الاتصال في خدمتك**»[1].

يذكر أمير المؤمنين في هذا المقطع أهم مقومات السمو الروحي وهي:

أ/ اللياقة البدنية، والتي تتطلب الصحة في الجسم والعافية «**قَوِّ على خدمتك جوارحي**».

ب/ اللياقة المعنوية في بعديها الروحي والفكري، فروحياً لا بدَّ من الإرادة الراسخة والعزم الثابت «**واشدد على العزيمة جوانحي، وهَب لي الجِدَّ في خشيتك**». ويمكن استشفاف الناحية الفكرية بكون حالة الجد في الخشية وديمومة الاتصال بالله تعالى لا تكون إلا عن معرفة به جلَّ ذِكره.

(١) دعاء كميل.

إلامَ توصِلُ هذه المقومات صاحبها، إذا سعى لاستكمال أسباب تحصيلها؟

«حتى أسرحَ إليك إليك في ميادين السابقين، وأسرع إليك في المبادرين وأشتاق إلى قربك في المشتاقين، وأدنو منك دنو المخلصين وأخافك مخافة الموقنين، واجتمع في جوارك مع المؤمنين»[1].

***

تناقضات الشخصية

«لا تَكُن مِمَن يَرجو الآخِرَةَ بِغَيرِ العَمل، ويُرَّجي التوبةَ بِطُولِ الأمل. يقولُ في الدنيا بقولِ الزاهدين، ويعملُ فيها بعمل الراغبين. إن أُعطيَ مِنها لم يشبعْ، وإنْ مُنِعَ لم يقنع...»[2].

مثل هذا الإنسان يعيش أزمة الاضطراب بين ما يفكر به ويرغبه، من جهة، وما ينطق به ويفعله من جهة أخرى، وهذا ما يعبر عنه بازدواج الشخصية.

اعتبر الإسلام الترجمة العملية لإيمان القلب شرطاً جوهرياً في تشكل شخصية المؤمن، جاء في الحديث: «لا

(١) دعاء كميل.
(٢) نهج البلاغة حكمة ١٥٠ ص ٦٩٨.

يكون المؤمنُ مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[١].

لو تعامل مثل هذا الإنسان بمسؤولية واعية بخطورة ازدواج الشخصية وما يترتب عليها من اضطرابات فكرية ونفسية وسلوكية لسعى بكل جهده إلى تقريب صورة السلوك العملي من التصور الفكري والتطلع القلبي طمعاً في الوصول إلى التشابه والتطابق بين الصورتين، عندها سيدرك قيمة تماسك الشخصية ووحدتها.

* * *

في سبيل مَنْ؟

يتحرك العديد من الناس لبناء شخصياتهم، وتحصيل عوامل الكمال، بميادين الخير ومضمار الفضيلة في سبيل الذات لا في سبيل الله؛ إذ ما إن يتعارض هذا المبدأ أو ذلك النشاط الخيري لمصالحه الشخصية وأهدافه الذاتية إلا وتجاهل أبسط الأسس الدينية مِنَ التورع من امتهان المؤمنين واغتيابهم، أو ترك العمل الذي طالما نادى بأهميته ورساليته!.

إن العمل المقدس يتطلب نفساً متعالية على الهوى،

---

(١) الكافي ج ٢ ص٧١/ ١١.

منعتقة من أسرِّ الطمع في العناوين والمسميات.

وكم هو الفرق بين من يراعي اسمه ومركزه، ومن يراعي الله وشريعته!، بين من يوظف الشريعة لبلورة ذاته وإبرازها، ومَن يوظف الذات لعزة الشريعة ورفعتها!.

عندما ندرس واقع البناء الذاتي والحراك الثقافي والاجتماعي على المحك نتذكر قول سيد الشهداء عليه السلام: «...**وإذا مُحِّصُوا بالبلاء قَلّ الدَّيَّانون**»[1].

لذا لا يمكن قياس الشخص بما يعمل فحسب، بل بمن يريد في عمله هذا أو ذاك، إذ من الممكن أن يكون العمل مقدساً تحركه أهدافاً غير مقدسه!. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2] لا أكثر ولا أعظم!

ومن أراد بعمله الله فقد أراد المطلق الذي لا غاية له ولا منتهى، وقد كتبَ لنفسه اسماً في حضيرة القدس، وكانت قيمته مطلقه، ومن أراد سوى الله فقيمته بمقدار ما يطلب.

وقيمة المرء ما قد كان يُحسِنُهُ
والجاهلون لأهل العلم أعداء[3]

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٨٢.
(٢) الملك: ٢.
(٣) ديوان الإمام علي عليه السلام.

ويلحظ في النصوص الإسلامية كما يلحظ في التراث الإنساني تقديم السر على الجهر في الفعاليات الخيرة من إعطاء الصدقات وعمل الخيرات؛ لما لذلك من أثر بالغ في تعميق الإخلاص والارتباط بالله تعالى.

وقد يدخل البعض في الشرك الخفي بالسعي لجعل طمأنينة النفس والوصول إلى معطيات وآثار السير والسلوك هدفاً بذاته، لا كنتيجة طبيعية لجهاد النفس وتهذيبها. وهذا مستوى عالٍ لا يدركه إلا من دقق في متابعة وملاحقة الانحرافات الخفية للنفس.

وقد اعتبر القرآن الكريم جملة من الأسباب والعناصر بمثابة الإله المطاع، الذي يحرف صاحبه عن الغاية من وجوده، ويقطع عليه الطريق الموصل إلى كماله.

يقول الشاعر:

خَليليَّ قطاع الفيفي إلى الحِمى
كثيرونَ أما الواصلون قليل

الكل ينزع للكمال بفطرته، ويسعى إليه، لكن الكثير من الناس لم يملك حريته وقراره:

فهذا واقع تحت غلِّ الطمع والشحِّ والهوى ﴿أَفَرَءَيْتَ

﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1].

وذاك واقع في عنجهية التقديس الأعمى للشخصيات، فأخذ حلاله وحرامه ومنهجة وطريقه ممن أطاع هواه ولم يطع أمر مولاه، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2].

وآخر أسير الشيطان وخطواته ﴿ ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[3].

لقد أصبح واضحاً لماذا أصبح الهوى إله؟والرهبان والأحبار أرباباً؟ والشيطان معبوداً؟

يقول الإمام علي عليه السلام: «**طوبى لمن أخلص لله العبادة، والدعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولن يحرك (يحزن) قلبه بما أعطي غيره**»[4].

إنه يرى كل ما عدا الله صغيراً، لا يستحق الانشغال إلا في امتداد الانشغال بذكر الله تعالى.

(١) الجاثية: ٢٣.
(٢) التوبة: ٣١.
(٣) يس: ٦٠.
(٤) ميزان الحكمة ج ٢/ ٤٧٤٤/ ٤٧٥١.

وكلما تجلى التوحيد في القلب تجلى الكمال في الفكر والسلوك.

يا سائراً نحو التوحُد طامحاً
شرطُ الطموحِ تجلدٌ وتصبرُ
شرطُ التوحُدِ أنْ تُطلِقَ شهوةً
متصاعداً فوق الأنا تتحررُ
لا تشتهي إلا الذي شاء القضا
مِراةُ قلبكَ بالهدى تتصور
وَحِدْ لربكَ مخلصاً لا تبتغي
ذِكراً وإخلاصاً وسعيكً يشكر
واسلك طريقكَ بين رغبة طالبٍ
قيمَ الوصال وبين خوفٍ يزجِر
مَن ذاقَ طعم الحبِّ يزهدُ في الذي
ما دونهُ وإلى لوصال يُحَضِرُ
وسحائبُ الإيمانِ إنْ هي أُمطِرتْ
مِن جودِها فمن السعادة تزهر[1]

* * *

(١) تجليات، جاسم حسين المشرف، دار الأضواء بيروت - لبنان ط ١ ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م من قصيدة عرفان ص ١٤٥، ١٤٧ (بتصرف).

صياغة البرامج الروحية

يخطئ من يختار برامجاً جاهزاً قدَّمهُ له الآخرون دون أدنى تأمل وتفحص ودراسة لشخصيته وقابليتها، والنتيجة الإحباط المتكرر، بسبب الفشل في تطبيق هذا البرامج أو ذاك، ودبيب روح اليأس والإحباط في نفس هذا الطامح.

كما أنَّ لكل منا لباسه المتناسب مع بُنْيَتِهِ وقوامه، كذلك الحُلل الروحية يجب أن تكون متلائمة مع لابسها. غير أنَّ تحديد مقاسات هذه الحلل أكثر دقة ومرونة، ولا تستقر أبعادها على حال حسب قابليات صاحبها وحالاته.

***

كما أنَّ صياغة البرامج الروحي وغيره يُبنى على ما أسفرت عنه محاسبة النفس ونقد الذات من نتائج.

وَ **«إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالًا وَإِدْبَاراً فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ»**[١].

ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«إنَّ للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قِبل شهوتها وإقبالها، فأنَّ القلب**

---

(١) وسائل الشيعة، ج٤، ص٧٠.

إذا أُكرهَ عَمي»[1].

ولا بدَّ من ملاحظة حالة النفس عندما نرغب في صياغة برامجنا اليومي أو غيره.

ولكن مع هذا يجب أن لا نقع أسرى الإفراط المستديم في الإدبار، وتمرُّ الأيام والأسابيع ونحن لم نتقدم خطوة في سبيل معنوياتنا الروحية متعللين بـ«**أنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالًا وَإِدْبَاراً**» فكما دعت الشريعة إلى مراعاة حالات النفس من النشاط والرغبة (الإقبال) أو الصدود والفتور (الإدبار) أكدَّت على ترويض النفس وتعوديها الطاعات.

يقول البُوصيري:

والنفسُ كالطفلِ إنْ تُهمِلهُ شَبَّ على
حبِّ الرِضاعِ وإنْ تَفطِمهُ ينفطِمُ

يقول أبو ذؤيب الهذلي:

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبتها
وإذا تُرَدُّ على قليلٍ تَقنعُ

فهناك مستوى من التواصل الروحي لا مناص منه، مهما كانت حالات النفس، ويتمثل في الالتزام بما فرضَ الله من واجبات والابتعاد عما نهى عنه من محرمات.

(١) نهج البلاغة الحكمة: ١٩٣.

مِن عادةٍ إلى عادة

ومن أهم السُبل المساعدة على نجاح حركتنا البنائية للروح التخلص من العادات السيئة المعيقة من تقدمها وسموها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**غالبوا أنفسكم على ترك العادات، وجاهدوا أهواءكم تملكوها**»[1]، ويقول في موردٍ آخر: «**غيِّروا العادات تسهل عليكم الطاعات**»[2]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[3].

وهناك صفات أخلاقية يمثل كسبها كسباً لمنظومة من الصفات النبيلة، فاليقين مثلاً يقوم عليه القناعة والرضا والزهد والخوف من الله تعالى.

كما يقوم على الكذب - والذي يعتبر من أرذل الصفات الأخلاقية- النفاق والخيانة وخلف الوعد والخداع والرياء وازدواج الشخصية.

ومن الشواهد على ذلك:

١- «يقول أبو عبد الله عليه السلام: قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم عبد الواحد الآمدي مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ط ١ (١٣٢٢هـ/ ٢٠٠٢م) ص ٢٠٥.
(٢) المصدر السابق ص ١٠٩.
(٣) الشمس: ٩ - ١٠.

رسول الله عَلِّمني. فقال: **اذهب ولا تغضب.**

فقال الرجل: قد اكتفيتُ بذلك، فمضى إلى أهله، فإذا بين قومه حربٌ، قد قاموا صفوفاً، ولبسوا السلاح، فلما رأى ذلك، لبس سلاحه، ثم قام معهم، ثم ذكر قول رسول الله ﷺ: **لا تغضب**، فرمى السلاح، ثم جاء يمشي إلى القوم الذين هم عدو قومه، فقال: ما كانت لكم من جراحه أو قتل أو ضرب ليس فيه أثر فعليَّ في مالي أو فيكموه.

فقال القوم: فما كان فهو لكم. نحن أولى بذلك منكم.

قال فاصطلح القوم وذهب الغضب»[1].

٢- وفي ذات يوم جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا رجل أحبُّ الإسلام، ولكني لا أستطيع أن أقلع عن الحرام، فقال ﷺ: **اضمن لي أن لا تكذب واعمل ما شئت**، فقبِل الرجل العرض وانصرف.

وفي الليل قرر أن يسرق، فقال لنفسه: لو لقيني شخص وسألني عن نيتي، فإن قلت له: إني ذاهب لعمل آخر كذبت، وهذا مخالف للمعاهدة التي بيني وبين رسول الله ﷺ، وإن قلت له: أني ذاهب للسرقة. فسوف يفضحني.. فعدل عن السرقة.

(١) سفينة البحار ج٢ ص ٣٢٠.

وهكذا حينما حدثته نفسه بالزنا، وشرب الخمر.

وبقي طول الليل في صراع بين ما تمنيه نفسه والعهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ.

فجاء إلى رسول الله وأخبره بما حدث، فطابت نفسه، وأقلع عن المحرمات[1].

وَ «جميع الصفات الإنسانية قابلة للإصلاح، إلا أنَّ الأمر في البداية يتطلب بعض العناء، ولكن ما إن يضع قدمه على طريق الإصلاح حتى يسهل عليه الأمر. إنما المهم أن يشرع في التفكير في تطهير نفسه وإصلاحها»[2].

«إنَّ نفس الإنسان قابلة للصياغة والتطبع كيفما نريد، فلماذا لا نعودها عادات الخير؟ لماذا لا نعودها العلوم والمعارف الحقة؟ لماذا لا نعلمها آيات الأحكام والمعارف الإسلامية؟»[3].

كيف نُحَصِلُ ونُغَيِّرُ العادات

- ولتحصيل الملكات وتغيير العادات ينبغي ملاحظة الآتي:

(١) الأساليب التربوية عند أئمة أهل البيت ص ١١١-١١٢ (بتصرف).
(٢) الأربعون حديثاً الإمام الخميني الطبعة العربية.
(٣) أسرار العبادة ص ١٠١.

١ - القناعة والرغبة الجازمة في التغيير، فأكفأ المعلمين وأبرع التربويين لا تأثير له في طالب مفتقرٍ للإرادة الجادة، أو طالب مقاومٍ للعلم والفضيلة.

وتحصل القناعة والرغبة بالتفكر في قيمة وأهمية ما يصبو إليه، والخطورة الفادحة للعادات والصفات التي تحول بينه وبين إنسانيته وسموه، وهذا يعني أنَّ خلق الدافعية الذاتية والتحفيز من أهم مقدمات التغيير.

والانطلاق من موقع الرغبة الواعية في تغيير الواقع الذاتي، لا بسبب ردة فعل نفسية ناشئة من تأنيب الضمير من تقصير هنا أو تجرؤ على المولى عزَّ وجل هناك، وإنْ كان للتدارك أهميته في هذا المجال، إلا أن هذا الاندفاع لا يمكن أن نصيغ من خلاله إستراتيجية ذاتية لواقعنا؛ لأن هذه الحالة سرعان ما تخفت وتضعف بعد سكون الضمير، وهدوء حالة الانفعال التي تعتري أصحاب الضمائر الحية في حال الوقوع فيما لا يليق بجوهرهم وقيمهم.

إنَّ ما هو مطلوب التغيير الجذري للواقع، وتتبع السبب المؤدي للخطيئة، لا المسكنات التي نعالج بها الآثار، حتى إذا تعافت النفس ونُسيَ الخطأ، ولاح الباطل وثِبَ عليه مرة أخرى!.

٢ - الرفق، وعدم إرهاق النفس بما لا تحتمله وتطيقه،

جاء في الحديث عن المصطفى ﷺ: **«يَا عَلِيُّ إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ وَ لَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ يَعْنِي الْمُفْرِطَ لَا ظَهْراً أَبْقَى وَ لَا أَرْضاً قَطَعَ»**[1].

٣- تقمص الصفات الإيجابية والتشبه بأصحابها إلى أن تصبح صفة أصيلة في النفس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«إنْ لم تكن حليماً فتحلَّم، فإنه قلَّ من تشبه بقومٍ إلا أوشكَ أن يكون منهم»**[2].

٤-البدء بالأسهل، وتركيز الطاقة الإرادية في صفة ما وبعد أن تصبح ملكة الانتقال لغيرها، وهكذا.

وتترسخ العادات بتكرارها بميل ورغبة إلى أن تثبت في النفس، وتصبح ملكة.كما تضعف بإهمالها، ومقاومتها إلى أن تزول.

٥- التدرج في تحصيل الفضائل، والتخلص من العادات السيئة، وهذا أسلوب القرآن في فرض الواجبات، والأمر بترك المحرمات.وكما يعتبر التدرج تكتيكاً لازماً في تحصيل اللياقة البدنية كذلك في الرياضة الروحية.

٦- التخلص الفوري من الخطرات الأولى الداعية للوقوع

(١) الكافي، ج٢، ص٨٧.

(٢) نهج البلاغة الحكمة: ٢٠٨.

في الخطأ، والانتقال بالتفكير والسلوك إلى ما يرضاه الله تعالى.

٧- الاستجابة لنداء الضمير وعدم إهماله فيما يدعو إليه من خير وفضيلة، ويحذر من شرٍّ ورذيله؛فإنَّ الضمير يقوى بالاستجابة والإذعان لأوامره ويضعف بإهماله.

٨- رفع المعنويات بالإيحاء الذاتي، بحيث يخاطب نفسه في مكان هادئ بالقدرات التي منحه الله إياها، الطموحات التي يأمل تحقيقها، بقوة وإصرار ليتحول مع التوكل على الله والعزم الثابت إلى واقع يعيشه ويحياه، لا حلم يأمله ويتمناه.

* * *

الروحانية انبساط لا انقباض!

تنعكس انفعالات النفس على وجه صاحبها، ونبرة صوته؛ فإذا كانت راضية مطمئنة رأيت ذلك في انبساط الوجه ونظرة العين، وهدوء القسمات.وإذا كانت منقبضة مضطربة تلمست ذلك في انقباض الوجه، وحِدَّة الصوت... وهكذا.

والاستغراق في استشعار عظمة الله تعالى والخوف منه يُحْدِثُ في النفس حالة من التذلل والانكسار تقرأها في قسمات وجه صاحبها وعينيه.

بيدَ أنَّ الإسلام كما دعانا إلى الخوف من الله، والتذلل

له دعانا إلى رجاءه، وحسن الظن به، وتفويض الأمر إليه، وطول الأمل به؛لتمتلئ النفس شعوراً بالسعادة، والحبور، والتطلع، الطموح لكل ما يملأ حياتنا بالتجدد والإشراق.

وأيُّ روحانية تُغَلِّبُ جانباً على آخر فهي سلوك ناقص الملكات يحتاج لأكثر من مراجعة وتصحيح.

وما يُلحظُ عند البعض من اعتزالٍ عن هموم الساحة ومتطلباتها، واستغراق في هموم الذات وإصلاحها، وانقباض منعكس -من عدم الرضا عن النفس- على الممارسة السلوكية، لدرجة لا يفهمه البعض إلا ترفعاً عليهم، يعطي انطباعاً مغايراً لما يجب أن يُنظر إليهم، وإلى أمثالهم من المؤمنين.

بينما تجد الروايات تؤكد على سمة الانبساط والبُشر الظاهرين عند المؤمنين، فـ«**الْمُؤْمِنُ بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ وَ حُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ**»[1]، هذا البشر وحسن الاستقبال يجعله مألوفاً ومقبولاً لدى الآخرين لا منعزلاً عنهم، جاء في الحديث: «**المؤمن أِلفٌ مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»[2]. وفي سيرة أهل البيت صلوات الله عليهم الكثير من الشواهد على ذلك.

---

(١) بحارالأنوار، ج٦٤، ص٣٠٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ج١٠، ص٣٩.

ثمة فرق بين حالة النفس في محراب العبادة وما يستتبعها من خشوع ظاهر وتوحد في جمال المعبود وبين ما تتطلبه الساحة الاجتماعية من انبساط الوجه، وابتسام الثغر، والمبادأة بالحسنى. فهذا أمير المؤمنين عليه السلام إذا وقف في محراب عبادته انقطع عن كل ما سوى الله، إذ لا شأن له بالدنيا والناس، وإذا ما نظرت إليه مع مَن حوله لا تخال أنَّ لهذا المتحدث البليغ والمتوثب البارز بأريحيته شأن بالعبادة.

هكذا تتحول الحياة بكل فعالياتها إلى محراب عبادة لمثل علي، ومن كعلي؟!!

جُمِعَت في صفاتِكَ الأضدادُ
فلهذا عَزَت لكَ الأندادُ[1]

* * *

(١) صفي الدين الحلي

الفصل السادس

الطريق إلى الله

الطريق إلى اللّه

«سُبْحَانَكَ مَا أَضْيقَ الطُرُقَ عَلَى مَنْ لَمْ تَكُنْ دَلِيْلَهُ، وَمَا أَوْضَحَ الحَقَ عِنْدَ مَنْ هَدَيْتَهُ سَبِيْلَهُ.

إِلَهِي فَاسْلُكْ بِنَا سُبُلَ الوُصُولِ إِلَيْكَ، وَسَيِّرْنَا فِي أَقْرَبِ الطُرُقِ لِلْوُفُودِ عَلَيْكَ»[1].

لم تترك أية قيادة -إسلامية كانت أو غير إسلامية- رصيداً علميًّا وتربويًّا بمثل ما خلفه النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم للإنسانية جمعاء، سواء قسنا ذلك الرصيد على مستوى الكم أم الكيف، وهذه واحدة من دواعي الفخر والاعتزاز لأتباع أهل البيت عليهم السلام.

أسلوب الإمام في الصحيفة السجادية

وتعد الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين

(١) الصحيفة السجادية- مناجاة المريدين

عليه السلام من أعظم الروافد التربوية والثقافية لروح وفكر قارئها ومتلقيها، لأنها تشبع لديه أهم التساؤلات الفطرية في علاقته بربه ونفسه ومجتمعه بكل أطيافه ومشاربه، وبالطبيعة من حوله، وبعالم الغيب والشهادة.

وتعتبر الصحيفة السجادية إعجازا في أسلوبها وبلاغتها وطريقة نفاذها إلى ذهن متلقيها وتغلغلها في وجدانه.

وتعرض لنا الصحيفة السجادية مبادئ الإسلام وقيمه من خلال الدعاء والمناجاة مستثمراً فيها الإمام قدراته البلاغية واللغوية والأسلوبية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١- التصوير الفني وتشبيه المعاني الذهنية والمفاهيم الفكرية الدقيقة ببعض المحسوسات المتكررة على القارئ والمألوفة لديه.
٢- المناقشة والاستدلال.
٣- العرض والاستنتاج.
٤- استثمار الثنائيات المتضادة والمقارنة بينها كـَ: (الجنة والنار، الخوف والرجاء، الحب والبغض).
٥- الترغيب والترهيب.

وغيرها من أساليب تلتقي مع القرآن الكريم في طريقتها وغايتها.

ما هو التسبيح؟

وفيما تقدم من مقطع دعائي يبتدئ الإمام مناجاة المريدين بالتسبيح (سبحانك) والتسبيح: تنزيه الله تعالى وتقديسه عما لا يليق بجلاله. كما أنه يعني الطلب لله تلويحا فهو -أي الله- منزه عن الحاجة ونحن محتاجون فنسأله قضاء حوائجنا، وهو القادر المنزه عن العجز ونحن العاجزون فنسأله قدرة من قدرته وهو العالم ونحن الجاهلون فنسأله ومضة من علمه وهكذا نستشعر معنى التسبيح في بعده الواسع.

وقد أضاف الإمام التسبيح إلى ضمير المخاطب المتصل (الكاف) الموجه لله تعالى ليقرب مسافة التخاطب مع الله وليدخلنا مباشرة في أجواء الاتصال به. ويقرر الإمام بعد تنزيه الله أن الطرق التي يزعم الإنسان أنها موصلة لرضوان الله تعالى ضيقة وغير مجدية؛ حيث أنها تفتقر للخارطة التي تحدد طبيعة المسار، وأسلوب السير إلى الله.

فمن أين يستمد الإنسان هذه الخارطة؟

يجيب الإمام أننا إذا ما أردنا عبادة الله والتقرب إليه فعلينا أن نعبده ونتقرب إليه بما أراد هو لا بما نريد نحن!

وبما يحب الله لا بما نهوى ونحب، فهؤلاء الذين شطحت بهم الأفكار والاجتهادات لاتخاذ السبل المؤدية في نظرهم إلى الله لم تزدهم طرقهم من الله إلا بعدا، لماذا؟

لأنه لم يكن دليلهم إلا هواهم.

من أين يأخذُ الإنسان طريقه؟

والإنسان في حركته في هذه الحياة يتخذ أحد الطرق الآتية:

١- الطريق الذي يرسمه لنفسه (أنا)

مستعينا بفكره ودرايته وفهمه للحياة، مستبداً برأيه ولا شأن له بما خلفته الأديان والحضارات من رصيد تربوي وأخلاقي وعلمي لا يستهان به، ويرى أن حياته من شأنه فهو حر ليس لأحد عليه حق في توجيهه وإرشاده.

وكثيرا ما يقع الإنسان المعجب بنفسه والمستبد برأيه والمتغافل عن قيم السماء فريسة لسلطان الهوى، وعبودية الشيطان، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

فالتأليه والعبودية في هاتين الآيتين يعني الطاعة والخضوع والانقياد لهوى النفس البعيد عما أراد الله، والاستجابة لشهواتها ورغباتها المنفلتة، التي لا تخضع لأية ضابطة من قيم ودين، كما أن عبادة الشيطان لا تعني الركوع والسجود له فليس هناك من يعبد الشيطان بهذا المعنى، بل المقصود الطاعة للشيطان والانسياق وراء وساوسه ومتابعة خطواته.

ومهما بلغ الإنسان من العبقرية والوعي فإنه سيعرف شيئا وتغيب عنه أشياء، كما قال الشاعر:

قُلْ للذي يدَّعي بالعلم مرتبةً
عرفتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ

٢- الطريق الذي يرسمه له الآخرون (هم)

ويتمثل هذا الطريق في تلك القوانين الوضعية التي تقررها السلطات، والتي لا تستمد شرعيتها من السماء، كما يتمثل ذلك في الأخذ بآراء الآخرين من كتاب ومفكرين وأصدقاء وأصحاب.

والقوانين الوضعية لا تستقر على حال فما كان ضرورياً اليوم قد لا يكون مجدياً في الغد؛ لأن واضعها لم يلحظ إلا المصلحة الآنية أو الشخصية التي تخدم أهدافه،

وتتجاهل حاجات الآخرين، أو يَلحظُ في صياغة رؤيته جانباً ويتجاهل أو يغفل جوانب أخرى يجب أن تراعى على المستوى الشخصي والاجتماعي. وهذا ما هو سائد على امتداد التاريخ.

وكم يعاني الإنسان الذي يحاول أن يرضي هذا وذاك فيأخذ من هذا رأيا وموقفاً ومن الآخر رأياً وموقفا معاكساً فإن أرضى هذا أغضب ذاك، والعكس بالعكس. مثل هذا الإنسان يعيش حالة توتر دائم واضطراب؛ لأنَّ سفينة حياته لا تستقر على مرسى محدد، فهو يفتقر للهدف، كما أنه في حالة ضياع وشتات دائمين.

يصور لنا القرآن الكريم حالة هذا الإنسان بالعبد الذي يملكه عدة شركاء مختلفين مع بعضهم وغير متآلفين، وكل منهم يريد هذا العبد لنفسه، ولتحقيق حاجاته.

في المقابل يضرب لنا القرآن الكريم مثالا لعبد يملكه شخص مسالم معه لا يشاركه أحد في إصدار الأوامر والتوجيهات.

فهل يستوي العبد الأول: المتشتت الفكر، المضطرب النفس، الخائف من النقمة والموت، مع العبد الثاني: المتوحد الفكر، والمطمئن النفس، المستقر الخاطر ؟! ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ

مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1].

وفي الدور الرسالي الذي كان يضطلع به النبي يوسف وهو في السجن يوجه تساؤلاً فطرياً لصاحبيه: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[2].

* * *

«عندما يبين الله تعالى عذاب الكفار والمنافقين يقول: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[3]، فليس لهم طريق للخروج من حالة الحيرة، فهم يدورون في حلقة مفرغة، والتردد هو من أثر العمى، فالذي لا يُبصر الطريق يظلُّ يراوح في مكانه.

والكفار والمنافقون لا يرون الطريق، فهم دائمو الذهاب والإياب، وهم في عذاب متواصل.

يصف القرآن الكريم أمثال هؤلاء بأن قلوبهم مبتلاة بالتردد، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾[4]، فما دامت قلوبهم بهذه

(١) الزمر: ٢٩.
(٢) يوسف: ٣٩.
(٣) التوبة: ٤٥.
(٤) التوبة: ١١٠.

الحال فهم حائرون لا يهتدون إلى الطريق.

قلب الكافر والمنافق في عذاب دائم، لا يعرف على أيِّ شيء يستند؟، ولهذا فالله سبحانه يبين للرسول ﷺ أن يقول لهم: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[1]، فهل يوجد طريق آخر تذهبون فيه؟»[2].

٣- الطريق الذي رسمه الله تعالى (هو)

فهو العالم بخلقه وما يصلحهم وما فيه سعادتهم، وما يشقيهم؛ فيرشدهم للتعليمات التي تنظم حياتهم، بما ينسجم مع الفطرة التي فطرهم عليها، وبما يشمل كل جوانب شخصياتهم وحياتهم الفكرية والروحية والعاطفية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، دون أن يطغى جانب على آخر، فيحيا الإنسان الملتزم بقيم السماء درجة من السعادة والطمأنينة تتناسب مع درجة التزامه واستجابته لأوامر الله واجتناب نواهيه.قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[3].

«فالله سبحانه وتعالى مطلق لا حدود له يستوعب

---

(١) التكوير ٢٦.

(٢) أسرار العبادة ص ٢١٦.

(٣) الأنعام: ١٥٣.

بصفاته الثبوتية كلَّ المثل العليا للإنسان الخليفة على الأرض، من إدراك وعلم، وقدرة وقوة وعدل وغنى. وهذا يعني أن الطريق إليه لا حدَّ له. فالسير نحوه يفرض التحرك باستمرار وتدرج النسبي نحو المطلق بدون توقف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]»[2].

وبمقدار ما تتسامى لديه حالة الالتزام تتسامى لديه حالة الشعور بالسعادة والطمأنينة، وإن كان في عمق البلاء؛ لأن فلسفة الوجود تصبح لديه واضحة ساطعة كوضوح الشمس.

على العكس من ذلك التائه في عبودية الهوى والآخرين، الذي تنهشه الغربة والإحساس بالعبثية.

وهكذا تتعدد الطرق وفي كل طريق مما أشرنا إليه تفريعات ومتاهات، غير أن طريق الله واحد وإن تعددت الروافد المتجهة إليه، فهو كالبحر الذي تصب فيه الأنهار المتعددة والتي تكونت من تلك الجداول القادمة من هنا وهناك.

والإمام عليه السلام يعلمنا أن نسأل الله أن يسلك بنا سبل

(١) الانشقاق: ٦.

(٢) نظرة عامة في العبادات ص١٧.

الوصول إليه «**إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، وسيرنا في أقرب الطرق للوفود عليك**»[1] وأن يلهمنا لمعرفة أقرب الطرق للوفود عليه، فهل هناك من طرق تختصر المسافة للوصول لرضا الله ؟.

إذاً من كان دليله هواه وشيطانه والناس ضاق به الطريق وعاش معيشة ضنكة «**ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله**»[2]، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «..**ومَن شاقَ وعرت عليه طرقه، وأعضل عليه أمره، وضاقَ عليه مخرجه**...»[3]، الشقاق: العناد، أي من عاند واستبدَّ برأيه، ولم يركن إلى الرشد والحكمة «**وعرت عليه طرقه**» أي خشنت وصعبت عليه طرقه المتباينه ولم يسهل عليه السير فيها، «**وعَضُلَ عليهِ مخرجه**»، اشتدَّ وأعجزت صعوبته.

بينما من أخلص النية لأن يترسم طريق الهدى فسيكون الحق واضحاً لديه ببهجة النور التي وهبه الله إياه، والهداية الخاصة التي تأهل لها «**وما أوضح الحق عند من هديته سبيله**».

وحياة الإنسان قائمة على منظومة من العلاقات:

---

(١) بحار الأنوار، ج٩١، ص١٤٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٩١، ص١٤٧.
(٣) نهج البلاغة الحكمة: ٣١.

- علاقته مع خالقه
- علاقته مع نفسه
- علاقته مع أولياء الله
- علاقته مع المجتمع والمتمثل في الأسرة والأصدقاء والمعارف ومن يلتقي معه في العقيدة ومن لا يلتقي.
- علاقته مع الأرض الذي هو عليها، والكون من حوله.

وهناك تأثير متبادل بين علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالآخرين، فكلما ازدهرت علاقة الإنسان بربه ازدهرت علاقته بمن حوله، وهذا ما يؤكده قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«مَن أصلحَ ما بينهُ وبين الله أصلحَ اللهُ ما بينهُ وبينَ الناسِ، ومَن أصلحَ أمر آخرتهِ أصلَحَ الله له أمر دنياه. ومَن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ»**[1].

ويتعمق الشعور بالمسؤولية كلما كان الهدف أبعد وأكبر.

وأي هدف أسمى وأكبر من التقرب إلى الله تعالى، ورضوانه؟

وهل هناك طريق أعظم وأجلُّ وأقرب وأسرع من الصلاة، التي هي «**عمود الدين إن قُبِلت قُبِلَ ما سِواها،**

(١) نهج البلاغة الحكمة: ٨٩.

وإن رُدَت رُدَّ ما سِواها»[1] كما ورد عن رسول الله ﷺ.

***

مِعرَاجُ المؤمِن

لم تحضَ عبادة من العبادات، أو واجب من الواجبات ما حضت به الصلاة من العناية والاهتمام في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وسيرة المعصومين صلوات الله عليهم، والعارفين، فلماذا كُلُّ هذا التركيز والاهتمام بهذه الفريضة؟

هذا التساؤل يُحيلُنا إلى فلسفة العبادات عامة، والصلاة على وجه الخصوص.

إنَّ الصلاة التي فرضها الله على عباده لها بعدان:

أ/ **البُعدُ الظاهري**: ويتمثل في تلك الأقوال والأفعال التي تبدأ بتكبيرة الإحرام وتنتهي بالتسلبم، ويشترط لصحتها الطهارة الظاهرية، واستقبال القبلة، وحلِّية المكان واللباس، وغيرها من الشروط المبسوطة في كتب الفقه.

وإذا أُديت بشرائط صحتها أجزأت، وسقط بهذا الأداء التكليف عن العبد. ولكن ما كل صلاة صحيحة مقبولة!.

---

(١) أمالي الصدوق، ص٦٤١.

ب/ البُعدُ المعنوي: وعليه مدار القبول من عدمه،؛ لأنَّ الصلاة لها عمق لا يمكن إدراك كنهه، والتنعم بآثاره إلا إذا أحدثت تحولاً جذرياً في مستوى الحضور أمام الله تعالى بما يليق بجلاله، من تعظيم، وخشية، وتدبر، وتفهم، وغيرها من الآداب المعنوية التي تناولها العارفون بالبحث والاستدلال.

ونحاول الوقوف في هذه الإلمامة المقتضبة على أهم الآداب المعنوية، وهو حضور القلب، والذي قد تعتبر بعض الآداب الأخرى شروطاً له، فما هو حضور القلب الذي يجب ألا تخلو منه صلاة؟وما الطريق إليه؟

حضور القلب

ما أنت إلا هذا القلب بكل تجلياته، وحضوره هو روح العبادة، فإذا القلب غاب عن العبادة والصلاة، غاب المصلي، والذي هو الركن الأساس في المعاملة مع الله، وهل ينتظر الغائب الذي لم يستجب لمن دعاه أي تكريم أو مكافأة؟ والذي لا عذر له سوى أنه آثرَ غيره عليه غفلة وجهلاً!.

وحضور القلب هو: تفريغ القلب عما عدا الله، من الدنيا وشواغلها، والحفاظ على العبادة من تصرفات الشيطان، وانشغال القلب والفكر في مضمون الصلاة والعبادة.يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا اسْتَقْبَلْتَ الْقِبْلَةَ فَانْسَ الدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا

وَ الْخُلْقَ وَ مَا هُمْ فِيهِ وَ اسْتَفْرِغْ قَلْبَكَ عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ يَشْغَلُكَ عَنِ اللهِ»[1]، وعنه عليه السلام قال: «**إِذَا أَحْرَمْتَ فِي الصَّلاَةِ فَأَقْبِلْ عَلَيْهَا فَإِنَّكَ إِذَا أَقْبَلْتَ أَقْبَلَ اللهُ عَلَيْكَ وَ إِذَا أَعْرَضْتَ أَعْرَضَ اللهُ عَنْكَ فَرُبَّمَا لَمْ يُرْفَعْ مِنَ الصَّلاَةِ إِلَّا الثُّلُثُ أَوِ الرُّبُعُ أَوِ السُّدُسُ عَلَى قَدْرِ إِقْبَالِ الْمُصَلِّي عَلَى صَلاَتِهِ وَ لَا يُعْطِي اللهُ الْغَافِلَ شَيْئاً**»[2].

ولا يحصل ذلك إلا بتجذر الإخلاص لله وصدق النية، والتفكر في جمال الله وجلاله، وصغر النفس وحقارتها أمام جبَّار السماوات والأرض، وتقصيرها، وحسرتها على ما فرطت في جنب الله تعالى.[3]

بهذا يصل الإنسان إلى مرتبة من مراتب الخاشعين الذين وعدهم الله بالفلاح والفوز، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[4].

وحقيقة الخشوع: «عبارة عن الخضوع التام الممزوج بالحب أو الخوف، وهو يحصل من إدراك عظمة الجلال

---

(١) بحارالأنوار، ج٨١، ص٢٣٠.

(٢) مستدرك الوسائل، ج٣، ص٥٧.

(٣) كل مفردة من هذه المفردات تمثل بحثاً مستقلّاً، لا تسعفنا مساحة الخطة البحثية لبسط القول فيها، وستجد شيئاً من التفصيل لذلك في كتابنا ترنيمة الملكوت.

(٤) المؤمنون: ١.

والجمال وسطوتهما وهيبتهما»[1].

وقد أسهب العارفون في سُبُل تحصيل حضور القلب، ومنها:

١- التأمل في أهمية الصلاة وعظمتها فهي «**عمود الدين إن قُبلت قبل ما سواها، وإن ردت رُدَّ ما سواها**» فمصيرنا وأعمالنا مقرونة بالصلاة.

٢- تركيز الفكر والخيال في أصل الصلاة ومضمونها، والمبادرة بإعادته إليه إذا ما شردَ وسها عنها.

وتوحيد الهم: فمن يتسامح مع نفسه ويتركها على رسلها فإنه يعرضها لأفدح المخاطر، والقلب تابع للهم فمن تخلص عن الشواغل وابتعد عمَّا لا يعنيه وضع رجله على أول الطريق.

٣- المراقبة للنفس: إذا أحضر الإنسان قلبه في الصلاة والدعاء وسيطر على حواسه وخواطره كان على حفظ نفسه خارج الصلاة أقدر. وهذا أهم دواعي التقوى ومؤكداتها عملياً. والعلاقة تبادلية التأثير، فإذا أطلق العنان لعينه وأذنه ولسانه وسائر جوارحه دون مراقبة وتحفظ خارج الصلاة كانت

(١) الآداب المعنوية للصلاة السيد الإمام مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ط ٢ ١٤٠٦هـ ص ٣٩

له تلك الخواطر شغلاً شاغلاً عن حضور القلب في الصلاة؛ لأن الإنسان لا ينفصل عن واقعه. «يقول الكثير: افتح عينيك لترَ، أما أهل المعنى فيقولون: أغلق عينيك لترَ، فعلى الإنسان أن يغمض عينيه أمام الكثير من الأشياء وذلك لتفتح عين قلبه»[١].

٤-.التدرج في تحصيل الحضور مع الصبر، «من صبر على الله وصل إليه»[٢]، وَ «**اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين**»[٣] كما يقول أمير المؤمنين.

من آثار الصلاة

١- القرب من الله تعالى، فـَ«**الصلاة قربان كل تقي**»[٤]، إنَّ قربان كل مصلٍ هو الصلاة، بل إنَّ كل عمل يعمله الإنسان لله عزَّ وجلَّ فهو بمقام القربان، فليست التضحية بالخراف في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة في منطقة مِنى قرباناً وحدها، بل كل عمل خير لوجه الله عز وجل فهو قربان، وإذا قبل العمل ورفعه الله إليه فمن الحتم يرتفع عامل الخير أيضاً، ولا يمكن أن يقبل العمل دون صاحبه، فهل يعقل أن تقبل النيات والأعمال وتصل إلى الله

(١) أسرار العبادة جوادي آملي، ص ٧١.
(٢) بحارالأنوار، ج٦٨، ص٩٥.
(٣) نهج البلاغة، ص٤٠٢.
(٤) بحار الأنوار، ج١٠، ص ٩٩.

عزَّ وجلَّ ونحن نبقى دون قبول منه سبحانه؟فإذا قبلت الصلاة كان المصلي أحق بالوصول ولقاء الله عزَّ وجل»[1]

٢- الاستقامة، والعصمة، والحصانة من الوقوع في الفواحش والمنكرات، بحيث تجعل صاحبها متسامياً بروحه، مكرماً لنفسه، مترفعاً على كلِّ ما لا يليق بجوهره. قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[2].

٣-طمأنينة النفس، والفضائل الأخلاقية، كقوة الثبات على الحق، والصبر بأنواعه، وشكر المنعم، والبذل في سبل الخير، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[3].

٤- غفران الذنوب، قال رسول الله ﷺ: «**مثل الصلوات الخمس كمثل نهرٍ جارٍ عذب على باب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقي من درنه؟**

قالوا: لا شيء

---

(١) أسرار العبادة الشيخ جوادي آملي دار الهادي بيروت-لبنان ط ١ ١٤٢٣هـ/ ١٩٩٣م ص ٤٨.
(٢) العنكبوت: ٤٥.
(٣) المعارج: ٢٢.

قال ﷺ: **فإنَّ الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يُذهب الماء الدرن»**[1].

٥- الحياة الطيبة، يقارن الإمام الصادق بين حال تارك الصلاة والمحافظ عليها بقوله: «**إنَّ ترك الصلاة يسوّدُ الوجه، ويورثُ الهمَّ، ويجلب الفقر، ويضيِّقُ الصدر.**

وفعلها يفرِّجُ الهمَّ، ويطول العمر، ويجلب الرزق، وينور الوجه، ويحبب إلى الله وإلى الملائكة وإلى الناس، وصلاة فريضة واحدة أفضل عند الله من ألف حجة، وكل حجة خير من ألف بيت مملوء ذهباً فيها وفضة يتصدقه على الفقراء والمساكين».

وأما الصلاة التي لا تحقق هذه الآثار وغيرها فهي صورة شبيهة بالصلاة وليست بصلاة!كما يشير السيد الإمام في كتابه الآداب المعنوية للصلاة:

وقد وردَ عن رسول الله ﷺ: «**مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»**[2].

* * *

---

(١) الدرن: الوسخ.

(٢) بحارالأنوار، ج٧٩، ص٩٨.

الفَصْلُ السَّابِعُ

صورٌ موقظة

صورٌ موقِظَة

لكي يُعطي كلام النور أثره في القلب، وتأخذُ سيرة التقوى موقعها من النفس لا بدَّ من فتح منافذ قلوبنا لتأنسَ بالنور، وتركن إلى التقوى.

إنَّ الانحناء الخاشع النابع من دهشة الجمال، وهيبة الجلال يجعل الإنسان يحلق بفكره مستغرقاً في مثل هذه المواقف العظيمة، والأقوال الحكيمة؛لتمثل له مرآة يرى ويتلمس الغاية من وجوده، وطريق وصوله إلى الله بكدحه المستمر، وبرامج حياته: عن فكره فيمَ يجب أن يشغله؟

وعواطفه كيف يضبطها؟

وسلوكه بمن يتأسى ويقتدي؟

كم شغلنا أنفسنا بالكثرات من خلال ملايين الصور والمشاهدات، والأصوات، وقد آن الأوان لتفعيل حواسنا

لأن تبصر وتسمع بتعقل ووعي لحقائق الأمور.

لنعطي أنفسنا فرصة للتأمل المركز البعيد عن التوزع والشتات والشواغل، ولنقرأ هذه الأقوال والمواقف وغيرها مما يحيي القلب وينيره، وكأنها أُنزلت على قلوبنا فنسمعها بوعي، ونراها بفهم، ونعيشها كحقيقة غير نائية عنا، ولا نستثني أنفسنا منها.

هكذا سنرى أنفسنا: أين هي؟ وكيف يجب أن تكون؟، ونعيدها إلى مدارها الصحيح.

١- ما أنصفتني!

قال النبي الأكرم ﷺ: «**ما مِن يوم يمرُّ إلا عزَّ وجلَّ ينادي:**

عبدي ما أنصفتني

أذكركَ فتنسى ذكري

وأدعوكَ لعبادتي وتذهب إلى غيري

وأرزقكَ من خزائني، وآمرك لتتصدق لوجهي، فلا تطيعني

وأفتحُ عليكَ أبواب الرزق، وأستقرضكَ مِن مالي فتجبهُني

وأُذهِبُ عنك البلاء، وأنتَ معتكِفٌ على فعل الخطايا

يا ابن آدم ما يكون جوابك لي غداً إذا أجبتني؟

يا ابن آدم ما تنصفني، أتحببُ إليكَ بالنعمِ، وتتمقَّت إليَّ بالمعاصي

خيري إليكَ منزلٌ، وشرُّكَ إليَّ صاعد.

ولا يزال ملك كريمٌ يأتيني عنك-كلَّ يوم وليلة- بعمل غير صالح.

يا ابن آدم لو سمعتَ وصفكَ-وأنتَ لا تدري مَن الموصوف-لسارعتَ إلى مقته.

ابن آدم تطّولتُ عليك بثلاث:

سترتُ عليك ما لو يعلم به أهلكَ ما واروك

وأوسعتُ عليكَ فاستقرضتُ منكَ فلم تقدم خيراً

وجعلتُ لكَ نَظِرةً عند موتِكَ في ثلثك فلم تقدم خير»[1].

***

٢- أحبب مَن شِئت

نزل الأمين جبريل على النبي ﷺ فقال: «**يا محمد عِش ما شئتَ فإنكَ ميت**

(١) كلمة الله الشهيد آية الله لسيد حسن الشيرازي مؤسسة الوفاء ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م ص ٣٤٥-٣٤٦.

وأحبب مَن شئتَ فإنكَ مفارقه

واعمل ما شئتَ فإنكَ مجزيٌّ به

واعلم أن شرفَ المؤمن قيامه بالليل

وعزه استغناؤه عن الناس»[1].

***

٣- لا بدَّ لكَ من قرين

«روى قيس بن عاصم قائلاً: وفدتُ مع جماعة من بني تميم على النبي ﷺ فدخلتُ عليه، وعنده الصلصال بن الهدلس، فقلت: يا نبي الله عِظنا موعظةً ننتفع بها فإنا قومٌ نغير في البَرِّيَّة.

فقال رسول الله ﷺ: **«يا قيس إنَّ مع العزِّ ذلَّا، وإنَّ مع الحياة موتاً، وإنَّ مع الدنيا آخرة، وإنَّ لكلِّ شيء رقيباً،، وعلى كلِّ شيء حسيباً، وإنَّ لكلِّ أجلٍ كتاب، وإنه لا بدَّ لك يا قيس من قرين يُدفَنُ معك، وهو حي، وتدفنُ معه وأنت ميت، فإنْ كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلا معك، ولا تحشرُ إلا معه، ولا تُسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً، فإنه إنْ صلح أنِستَ به، وإنْ فسدَ**

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٠.

استوحشتَ منه، وهو فعلك».

فقال: يا نبي الله أحبُّ أن يكون هذا الكلام في أبيات من الشعر نفخر به على مَن يلينا من العرب وندخره.

فأمر النبي ﷺ مَن يأتيه بحسان. فاستبان لي القول قبل مجيء حسان فقلت: يا رسول الله قد حضرني أبيات أحسبها توافق ما تريد، فقلتُ شعراً:

تَخَيَّر خليطاً من فعالكَ إنما
قرين الفتى في القبر ما كان يفعلُ
ولا بُدَّ بعدَ الموتِ مِن أن تُعِدُّهُ
ليوم يُنادى المرءُ فيه فيرحلُ
فإنْ تكُ مشغولاً بشيءٍ فلا تَكُن
بغير الذي يرضى به الله تشغلُ
فلنْ يصحبَ الإنسانُ مِن بعدِ موتهِ
ومِن قبلهِ إلا الذي كانَ يعملُ
ألا إنما الإنسانُ ضيفٌ لأهلهِ
يقيمُ قليلاً بينهم ثم يرحلُ[1]

* * *

(١) معاني الأخبار ص ٢٣٣.

٤-أفكر في عفوك

«عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال: كنا جلوساً في مجلس، في مسجد رسول الله ﷺ فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم ألا أخبركم بأقلِّ القوم مالاً، وأكثرهم ورعاً، وأشدهم اجتهاداً في العبادة؟

قالوا: مَن؟

قال: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال: فو الله إن كان في جماعة أهل المجلس إلا معرضاً عنه بوجهه، ثم انتدب له رجلٌ من الأنصار، فقال له: يا عويمر، لقد تكلمت بكلمة ما وافقكَ عليها أحد منذ أتيت بها.

فقال أبو الدرداء: يا قوم إني قائلٌ ما رأيت، وليقل كلُّ قوم منكم ما رأوا.

شهدتُ علي بن أبي طالب عليه السلام بشويحطات النجار وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمقيلات النخل، فافتقدته وبَعُدَ عليَّ مكانه، فقلت: لَحِقَ بمنزله، فإذا أنا بصوتٍ حزين ونغمة شجيٍّ وهو يقول:

«إلهي كم مِن موبقةٍ حلمتَ عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمتَ عن كشفها بكرمك!

إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك».

فشغلني الصوت، واقتفيتُ الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاستترتُ له، وأخملتُ الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغابر، ثم فرغ إلى الدعاء والبثِّ والشكوى، فكان مما ناجى الله به أن قال:

«إلهي أفكر في عفوك فتهونُ عليَّ خطيئتي، ثمَّ أذكرُ العظيمَ من أخذكَ فتعظم عليَّ بليتي».

ثمّ قال:

«آهٍ إن أنا قرأتُ في الصحفِ سيئةً أنا ناسيها، وأنت محصيها، فتقول: خذوه، فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، ولا يرحمه الملأ إذا أُذِنَ فيهِ بالنداء».

ثم قال: **«آهٍ من نار تنضجُ الأكبادَ والكلى**

آهٍ من نارٍ نزاعةٍ للشوى

آهٍ من غمرةٍ من ملهباتِ لظى!».

قال: ثم أنعم في البكاء، فلم أسمع له حساً، ولا حركة، فقلتُ: غلبَ عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر.

قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحركته فلم يتحرك، وزويته فلم ينزوِ، فقلت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ مات والله علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال: فأتيتُ منزله أنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبا الدرداء ما كان من شأنه، وما قصته؟

فأخبرتها الخبر، فقالت: «**هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله**».

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق، ونظر إليَّ وأنا أبكي، فقال: ممَ بكاؤك يا أبا الدرداء؟

فقلت: ممَ أراه تنزله بنفسك.

فقال: «**يا أبا الدرداء فكيف إذا رأيتني ودُعيَ بي إلى الحساب**

وأيقنَ أهل الجرائم بالعذاب

واحتوشتني ملائكة غلاظ، وزبانية فظاظ

فوقفتُ بين يدي الملك الجبار

وقد أسلمني الأحباء

ورحمني أهل الدنيا

لكنتَ أشد رحمة لي بين يدي مَن لا تخفى عليه خافيه».

فقال أبو الدرداء: فوالله ما رأيتُ ذلك لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ»[1].

* * *

٥- العيشُ الهنيء

ومما خاطب به الله عزَّ وجلَّ نبيه محمد ﷺ ليلة المعرج إجابته على سؤال طالما أرَّق البشرية على امتداد تاريخها، وسعت بكل جهدها للإجابة عليه، فلم تفلح إجابات الإنسان القاصر للوصول لكنه إجابته الشافية.

«يا أحمد هل تدري أي العيش أهنأ؟ وأي حياة أبقى؟

قال: اللهم لا.

قال: أما العيشُ الهنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري، ولا ينسى نعمتي، ولا يجهل حقي، يطلب رضاي في ليله ونهاره.

(١) بحار الأنوار ج ٤٢ ص ١٣.

وأما الحياة الباقية، فهي التي يعمل (صاحبها) لنفسه، حتى تهون عليه الدنيا، وتصغر في عينه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه، ويبتغي مرضاتي، ويُعَظِّمني حق عظمتي، ويذكر علمي به، ويراقبني بالليل والنهار، عند كل سيئة أو معصية، وينقي قلبه عن كل ما أكره، ويبغض الشيطان ووسواسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنتُ قلبه حباً، حتى أجعل قلبه لي، واشتغاله وهمه وحديثه مِن النعمة التي أنعمتُ بها على أهل محبتي، من خلقي، وأفتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بلقبه، وينظر بقلبه إلى جلالي، وعظمتي، وأضيِّقَ عليهِ الدنيا، وأبغِضَ عليه ما فيها من اللذات، وأحذره من الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي غنمه من مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفرُّ من الناس فراراً، وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن.

يا أحمد ولأزيننه بالهيبة والعظمة.

فهذا هو العيشُ الهنيء، والحياة الباقية، وهذا هو مقام الراضين»[1].

* * *

(١) كلمة الله ص ٣٧٧-٣٧٨.

المصادر

١- **القرآن الكريم**.
٢- **الآداب المعنوية للصلاة**، السيد الإمام مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان ط ٢ ١٤٠٦هـ.
٣- **الأربعون حديثاً**، الإمام الخميني الطبعة العربية ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٤- **أسرار العبادة** الشيخ جوادي آملي دار الهادي بيروت-لبنان ط ١ ١٤٢٣هـ/ ١٩٩٣م
٥- **الأصول من الكافي**، الكليني، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٥هـ - ش.
٦- **تأملات في المعرفة والسلوك**، الشيخ محمد مهدي الآصفي دار الهادي ط ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٧- **تجليات**، جاسم حسين المشرف دار الأضواء بيروت-لبنان ط ١ ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٨- **بلاغة الإمام علي بن الحسين عليه السلام**، جعفر عباس الحائري، ط١ - ١٤٢٥هـ، دار الحديث للطباعة والنشر، قم - إيران.
٩- **التربية الروحية بحوث في جهاد النفس**، السيد كمال الحيدري دار الصادقين إيران-قم ط ١ ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
١٠- **ترنيمة الملكوت**، جاسم حسين المشرف (مخطوط).
١١- **الجفاف الروحي الأسباب والعلاج**، السيد عبد الله الغريفي مؤسسة العارف للمطبوعات بيروت- لبنان ط ٢ ٢٠٠٤م/ ١٤٢٥هـ.
١٢- **ديوان الإمام علي عليه السلام**.
١٣- **ديوان المتنبي**، دار صادر، بيروت - لبنان، طبعة جديدة ٢٠٠٠م.
١٤- **رؤى معرفية**، كامل الهاشمي الغدير للطباعة والنشر والتوزيع ط ١ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
١٥- **الروح والجسد**، مصطفى محمود دار المعارف القاهرة ط ٧.
١٦- **سفر الآخرة**، عبد العظيم المهتدي البحراني مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت-لبنان ط ١ ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٧- **الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي**، نزار

العاني دار الفرقان ط ١ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٨- **صحيح مسلم**، مسلم النيسابوري، دار الفكر - بيروت.

١٩- **الصداقة من واقع التجربة**، جاسم حسين المشرف دار الكاتب العربي بيروت-لبنان ط ١ ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٠- **طهارة الروح**، مرتضى المطهري إعداد: حسين واعظي نجاد ترجمة:خليل زامل العصامي دار المحجة البيضاء ط ١ ١٤١٨هـ.

٢١- **غرر الحكم ودرر الكلم**، عبد الواحد الآمدي مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ط ١ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٢- **كلمة الله**، الشهيد آية الله السيد حسن الشيرازي مؤسسة الوفاء ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٢٣- **لقاء الله رسالة في السير والسلوك**، الحاج ميرزا جواد الملكي التبريزي ترجمة:عبد الهادي الركابي مكتبة فخراوي ط ١ ٢٠٠٢م- ١٤٢٣هـ.

٢٤- **مجموعة ورام**، مكتبة الفقيه - قم.

٢٥- **محاسبة النفس وبناء الذات**، جاسم حسين المشرف دار الأضواء بيروت-لبنان ط ١ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٦- **معاني الأخبار.**

٢٧- **مفاتيح الجنان**، الشيخ عباس القمي

٢٨- **ميزان الحكمة**، محمد الريشهري دار الحديث ط ١ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٩- **نظرات في الإعداد الروحي**، الشهيد حسين معن.

٣٠- **نظرة عامة في العبادات**، الشهيد السيد محمد باقر الصدر دار الكتاب الإسلامي ط١/ ١٤٢٣هـ

٣١- **نهج البلاغة.**

المحتويات

للتواصل مع المؤلف

* العــنـــــوان:

المملكة العربية السعودية

المنطقة الشرقية

الأحساء ٣١٩٨٢

ص.ب: ٣٥٠٦٠

* البريد الإلكتروني:

sana114@gmail.com